

Coherence in argumentative discourse Cognitive Pragmatics Approach

Dr. Sadok Saadia

Ezzitouna University, Tunisia
sadoksaadia@gmail.com

Abstract:

We propose, as many linguists, that the function of types of discourse is argumentation. All discourses want to be coherent, so, We can't speak about discourse without speaking about coherence, for this reason, We study in this article coherence in argumentative discourse, we distinguish between two levels of coherence: cohesion and coherence.

In this work, we revisit the relevance theory developed by linguists, Dan Sperber and Deirdre Wilson, this theory allows to study coherence with a pragmatic cognitive view. We focus in our study on literary corpus (two texts by Mahmod Al-Massadi): «haddatha Abou Houraira kal; Abou houraiara narrated: He said» and «Alssad», we believe that literature is a reformulation of reality and reconstruction of it in their contexts, intentions and processes of speech and especially in coherence.

Keywords:

Coherence, argumentation, argumentative discourse, relevance theory, cognitive pragmatics.

تمهيد:

حظي الحجاج باهتمام حمل بعض الدارسين على أن يختزلوا فيه كل خطاب وأن يجعلوا بقية الأنماط مجرد تفرعات له ومظاهر إثراء. وقد لا تختلف مع هؤلاء الدارسين في اعتبارنا أن أصل الخطاب حجاج وأن القول إنما ينجز لغاية ومقصد وتقوم اللغة بدور توجيهي في إقناع المتلقي بالفكرة وحمله على التصرف بما تمليه وتدفعه إليه. ونعتقد أن لبناء الخطاب الحجاجي وانسجامه من أهمية ما يحمل على الاعتناء. فالانسجام الذي لازم لسانيات النص ونحوه مبدأ ملازم لتحليل الخطاب إجمالاً وللخطاب الحجاجي بصفة خاصة، وهو ما يدفعنا إلى محاولة تبين مظاهر انسجام الخطاب الحجاجي استناداً إلى نظرية الإفادة لدان سيربر (D. Sperber) ودريدر ولسن (D. Wilson).

1. في المصطلح والمفهوم:

1.1. الانسجام: ظهر الانسجام مصطلحاً محايثاً لمبحث لسانيات النص وشهد تعريفه مداخلة عدة اشتركت في ربط المفهوم بمظهره فعرفته "ليتالاندكسيت" (Lundquist Lita) بأنه "عمل لغوي يشمل، شأن كل عمل تَلَقُّظي، ثلاثة أعمال رئيسية: عمل الإحالة (تحدث عن شيء ما)، وعمل الإسناد (قول شيئاً ما)، والعمل المتضمن في القول (ضمن قصد محدد)، وتحدد هذه الأعمال الثلاثة ثلاثة مستويات بنائية في النص وهي البنية الموضوعاتية والبنية الدلالية والبنية التداولية¹، وعرفه جيري هوبز بأنه العلاقة بين القضية والمقطع الخطابي الذي ترد فيه، وعرفه واترلو "Waterlot" باعتباره صفة للنص فقال "يكون النص منسجماً عندما ندرك بسهولة وحدته رغم تكونه من مجموعة من الجمل، إن القارئ إذن هو من يحكم على الانسجام.. انسجام النص هو وظيفة التفاعل بين العمل

1. Gagnon, Odette, (2000), p22.

الاستدلالي للقارئ وبعض الخصائص غير المنسجمة في النص ذاته¹، ويحملنا العمل الاستدلالي إلى نظرية الإفادة التي طورها سبيرر وولسن باعتبارها نظرية في انسجام الخطاب قائمة على الاستدلال غير البرهاني. ونظرية الإفادة هي النظرية التي ننظر في ضوءها في انسجام الخطاب الحجاجي في هذا المقال ولذلك نرجع القول فيها إلى حين.

وورد مصطلح الانسجام ملازما لمصطلح آخر ملتبسا به في أكثر من موضع هو مصطلح الاتساق، ويؤكد الباحث الجزائري "حمودي السعيد" أن (هارفنج) هو أول من ذكر الاتساق واعتنى به ويقول في ذلك: "وإلى (هارفنج) تُعزى أول محاولة جادة لوصف التنظيم الناطقي الداخلي للنصوص من خلال الحديث عن بعض العلاقات التي تسودها، مثل علاقة الإحالة والاستبدال مشيرا إلى التكرار والحذف والتزادف والعطف والتفريع والترتيب وذكر النتيجة بعد السبب والجزء بعد الكل أو العكس وهذا كله يقع في دائرة الترابط والاتساق الداخلي للنص"² وعرف هاليداي ورقية حسن في كتابها "Cohesion in English" الاتساق بأنه "مفهوم دلاليّ يحيل على العلاقات المعنوية الموجودة داخل النص والتي تجعل منه نصاً"³ ويعرفانه بأنه "جزء من نظام اللغة"⁴ وضمن هذا الإطار اعتنى هاليداي وحسن بالعلامات الرابطة بين مكونات النص والعلاقات الراقمة بين القضايا واهتما بالإحالة والترابط والتضمير والتضمين وغيرها من علامات الانتظام داخل النص.

يتفرع الانسجام باعتباره مظهرا للالتئام القول في النص وحسن سبكه، إذن، إلى اتساق بما هو علامات ظاهرة تربط بين المتتاليات والقضايا وتحيل على النوات، وإلى انسجام بما يعنيه من علاقات دلالية وتداولية واستدلالية.

1. Waterlot, Martine, L'évaluation et l'enseignement de la cohérence textuelle, p1.PDF.

2. حمودي السعيد، الانسجام والاتساق النصي، المفهوم والأشكال، ص108.

[http://manifest.univ-](http://manifest.univ-ouargla.dz/documents/Archive/Archive%20Faculte%20des%20Lettres%20et%20des%20Langues/seminaires%20facultes%20des%20lettres/Linguistique%20et%20le%20roman/HAMOUDI%20ssaid.pdf)

[ouargla.dz/documents/Archive/Archive%20Faculte%20des%20Lettres%20et%20des%20Langues/seminaires%20facultes%20des%20lettres/Linguistique%20et%20le%20roman/HAMOUDI%20ssaid.pdf](http://manifest.univ-ouargla.dz/documents/Archive/Archive%20Faculte%20des%20Lettres%20et%20des%20Langues/seminaires%20facultes%20des%20lettres/Linguistique%20et%20le%20roman/HAMOUDI%20ssaid.pdf)

3. M.A.K. Halliday and Ruqaiya Hasan, (1994), p4.

4. Ibid, p5.

2.1. الخطاب الحجاجي: نمط اللسانيون الخطاب إلى أصناف يمثّل الحجاج أحدها وذكر جون ميشال آدام على سبيل الذكر خمسة أنماط للخطاب أطلق عليها صفة مقاطع وهي: المقطع السردى والمقطع الوصفي والمقطع الحجاجي والمقطع الحوارى والمقطع التفسيري، وعرف شارودو ومنقبنو نمط الخطاب في معجمهما لتحليل الخطاب بالقول: "لمفهوم نمط الخطاب عدّة معان فيجانب تحديد واسع يدلّ هذا المفهوم بمقتضاه على كلّ صنف من أصناف الخطاب مما كان المقياس المتوخّى لذلك، ويوجد معنيان حصريّان، أحدهما يقابل بين نمط الخطاب وجنس الخطاب باعتبارها قطع إنتاج لغويّ لمجتمع ما وبين جهاز تواصل خاص، والآخر يعتبر أنماط الخطاب طُرُق هيكلية أساسية تؤلّف في النصوص الفعلية، ويميّز "برونكهات" بين أربعة أنماط خطاب كبرى، خطاب تقاعلي وحكاية تفاعلية وخطاب نظري وسرد... ويميّز "بوشار" (1990) بين تسعة أنماط على أساس ثلاثة مقاييس، دلالي (إحالي) (سردى، وصفي، عرضي) وتلفظي (مداخلة، خطاب مكتوب، إنجازات كتابية وشفوية) وتداولي (الزاي، تفسيري، حجاجي)¹.

وهو تعريف يندد إلى وظيفة المنجز اللغوي ومقصد واضعه كاتباً كان أو مشافهاً، ونجد تصنيفاً للحجاج ضمن مقياس التداول، فالحجاج ينتمي إلى ما يعرف بدراسة اللغة إبان الاستعمال، وهو ما يجعله أقرب إلى عائلة الأعمال الإنسانية ويجعل تناوله وفق المقاربة التداولية أنسب باعتبار انتائه. وفي ذلك يقول فيليب بريتون (Ph. Breton) "ينتمي الحجاج إلى عائلة الأعمال الإنسانية (les actions humaines) والتي تهدف إلى التأثير والإقناع وخاصيتها أن تضفي منطقاً على وضعية تواصلية² ويجعل بيرلمان وتيتيكاه مدار الترس الحجاجي على تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدّي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم.

تحملنا هذه التعريفات على الإقرار باندرج الحجاج ضمن النظرية التواصلية بل يمكننا مقارنته استناداً إلى النظرية التواصلية العرفانية التي يمثّلها سبيرير وولسن و"إفادتها" التي تعني في جانب منها "الانسجام".

3.1. الإفادة: لاحظنا عند بدء عملنا في مبحث الإفادة، اختلافاً في ترجمة المصطلح إلى العربية، فقد ترجمه عبد الله صولة بالإفادة وترجمه شكري المبخوت وسيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني

1. معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، ص 577.

2. Ph., Breton, (2003), p3.

بالمناسبة وترجمه مسعود صحراوي بالملاءمة¹. وكان لزاما علينا لغايات إجرائية أن نقرّر مصطلحا واحدا نجري فيه القول حتى لا يحدث إرباك في مستوى الإحالة على المفهوم، وقد استبعدنا أن نضيف مصطلحا جديدا اعتبارا إلى أنّ ما وجد يفي بالحاجة من ناحية واعتبارا إلى أنّ الوفرة المصطلحية ليست مطلبا في ذاتها من ناحية ثانية، فعدنا إلى الأصل الإنجليزي نبحث عن معناه في القواميس ذات اللسانين كما عدنا إلى الترجمة الفرنسية نبحث عن معنى للمصطلح في الفرنسية خاصة و"دان سيرير" أحد المؤلفين للكتاب بالإنجليزية كان طرفا في الترجمة إلى الفرنسية. ولئن اختار الكاتبان "دان سيرير" و"ديدر" ولسن" في النسخة الأصلية إطلاق عنوان "*relevance: communication and cognition*" على مؤلفها و"the relevance" على النظرية، في أكثر من مقال منشور لهما بالعنوان ذاته مثل "*Relevance Theory*"² و"*Outline of Relevance Theory*"³، وقد ترجم "دان سيرير" وأبال جرشنفيلد" المصطلح بـ "*la pertinence*"⁴، رغم توفّر الوحدة المعجمية "*relevanc*" في الفرنسية وتوفّر الوحدة المعجمية "*pertinence*" في الإنجليزية.

واعتمدنا للتظّر في المصطلح معجمين أحدهما إنجليزي عربي وهو معجم "الكنز" الصادر عن دار السابق للنشر - بيروت، دون تاريخ نشر وهو الذي قدّم له ميخائيل نعمة، وثانيها فرنسي عربي وهو معجم المنهل لسهيل إدريس والصادر عن دار الآداب بيروت، سنة 2009. وقد وجدنا التعريفات التالية متعلّقة بكلّ وحدة معجمية في اللسانين:

وجدنا من الإنجليزية إلى العربية القائمتين التاليتين:

Pertinence: ملائم، مناسب، موافق، وثاقّة الصلة بالموضوع، مناسبة.

relevance: وثاقّة الصلة بالموضوع، علاقة.

1. ذكر عيد الله صولة المصطلح في كتابه الحجاج في القرآن، وذكر المبخوت المصطلح في كتابه نظرية الأعمال اللغوية وذكر دغفوس والشيباني المصطلح في ترجمتهما لكتاب موشلار وريبول "التداولية اليوم" وذكر صحراوي المصطلح في كتابه التداولية عند العرب.

2. L.Horn and G. Ward, (2004.)

<http://people.bu.edu/bfraser/Relevance%20Theory%20Oriented/Sperber%20&%20Wilson%20-%20RT%20Revisited.pdf>.

3. http://download2.hermes.asb.dk/archive/download/H05_04.pdf.

4. Traduire de l'anglais par, Abel Gerschenfeld et D. Sperber.

وترجمت الصفة (*relevant*) بـ"على نحو وثيق الصلة بالموضوع، ذو علاقة. مناسب. ذو مغزى. مفيد. أما في الفرنسية فقد وجدنا القائمة التالية:

La pertinence: ملاءمة، موافقة، وثاقفة الصلة بالموضوع، مناسبة الصلة بين الحجة والموضوع¹. يظهر في هذه القوائم تواتر وحدتي، الملاءمة والمناسبة، وفكرة التعالق بين الأفكار، فكل التعريفات تتفق على وثاقفة الصلة بالموضوع.

وعدنا إلى مصطلح المناسبة في العربية فوجدنا السجلماي يعرفه بأنه شكل من أشكال "التكرير" وهو إيراد المعنى وما يليق به، وهو تركيب القول من جزأين فصاعدا، كل جزء منها مضاف إلى الآخر ومنسوب إليه بجهة ما من جهات الإضافة ونحو من أنحاء النسبة وقد صنّف جهات المناسبة إلى أربع وهي:

- إيراد الملائم: أن يأتي بالشيء وشبهه، مثل الشمس والقمر، السرج واللجام، والسيف والفرند...
- إيراد التقيض: أن يأتي بالأضداد، مثل الليل والنهار والصبح والمساء والحياة والموت..
- الانجرار: أن يأتي بالشيء وما يستعمل فيه من مثل: القوس والسهم والفرس واللجام والقلم والذوابة.
- التناسب: أن يأتي بالأشياء المتناسبة مثل القلب والملك؛ إذ يقال نسبة القلب في البدن تشبه الملك في المدينة².

ويتبين من هذا التعريف للمناسبة اختصاصها بتصنيف العلاقة المعنوية بين الألفاظ وإغفالها ما اصطلح عليه المفهوم (*the relevance*) في أصل وضعه الذي يتوسّع في العلاقة الدلالية القائمة على التعالق والملاءمة بين المقول، دون أن ينفيا، فيعرف المفهوم بأنه ما يفهم من المقول في علاقته بالسياق³.

1. سهيل إدريس، المنهل، ص900.

2. أبو محمد القاسم السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تقديم وتحقيق علال الغازي، ص518-519.

3. ورد ذلك في أعمال، فان ديك، وسبيرير وولسن.

أما بالنسبة إلى الملاءمة، فيبدو من التعريف السابق للمناسبة أنها جهة من جهات المناسبة ذات الطبيعة التركيبية والتي تتشابه، من منظور تحليل الخطاب، مع مبدأ المشابهة. وهذا ما يجعلنا نرجح اعتماد مصطلح "الإفادة" على مصطلحي "المناسبة" والملاءمة ترجيحاً إجرائياً أملتة طبيعة المبحث التداولي العرفاني الذي يهتم بالحيط العرفاني في فهم المقول دون أن يلغي التعالقات التركيبية.

2. التواصل إطاراً للإفادة:

نزل "دان سبيربر (D. Sperber)" و"دريدور ولسن (D. Wilson)"، مقاربتهم ضمن نظرية التواصل، ووسّع مجال عملهما ليقاربا الخطاب من زاوية التمثيل الحاصل في ذهن طرفيه (الخطاب) لحظة التواصل ومحاولين التعرّض إلى الطّورائى المستجدة على تمثّلات كل طرف للعالم، يقولان في ذلك: "التواصل تمشّ يضع في الاعتبار طرفين لبناء المعلومة بحيث يغيّر أحد الطرفين المحيط الفيزيائي للآخر، ومن نتائج ذلك حمل الطرف الثاني على بناء تمثّلات تتطابق وبعض التمثّلات الحاصلة عند الطرف الأول"¹ وهما بذلك يحدّان التواصل بأنّه تمشّ ومنهج يستلزم طرفين على الأقلّ غايته بناء المعلومة بتأثير أحد الطرفين في الآخر مستثمراً المحيط الفيزيائي بما هو إدراك حسيّ للموجودات.

والقول بتغيير المحيط الفيزيائي هو قولٌ بتعديل إدراك أحد الطرفين للعالم حوله ذلك الإدراك الذي أمّنته الحواس، وهو ما يعيد إلى الذهن علاقة المعرفة بالحواس التي اعتبرت دائماً قاصرة عن إدراك الحقيقة والإلمام بكلّ جوانب التجربة، كما تستوقفنا، في هذا التعريف، تلك العلاقة بين التواصل والتمثّلات الحاصلة في الذهن/ الجهاز الذهني، فلكلّ فرد تمثّلات تحدّد رؤيته للعالم الذي يتحرّك فيه، وهذه التمثّلات مخزّنة في الذاكرة التصورية، أو هي الذاكرة طويلة المدى وفق حقائق مكتملة²، والتواصل مع الآخر هو عملية ذهنية معقدة تهدف إلى التأثير في تلك التمثّلات تدعياً أو تقويضاً أو تعديلاً والثابت أنّ التواصل لن يحافظ إثر عملية التواصل على تمثّلاته الأولى وإنّما سينتهي به الأمر إلى إعادة بناء ما خُزن وفق مقتضيات جديدة.

1. Sperber, et Wilson, (1989), p10.

2. نقصد بالحقائق المكتملة تلك المعارف التي خزّنها صاحبها في الذهن على اعتبار أنّها حقيقة لا جدال فيها إلى حدود تلك اللحظة، وهي الحقائق التي يستند عليها صاحبها في حوارها مع الآخر ويقاوم بها المعرفة الجديدة التي توفرها المحادثة، وقد تتغير تلك الحقائق بعد المحادثة لتعوض بحقائق أخرى وقد تزداد صلابة وثباتاً.

ينبغي التّواصل على ركيّتين، قواعد تقيمه ومقاصد تشرّع له، فأما التّواعد فهي مخاطب ومخاطب ومتن تواصلّي هو الخطاب، وأما المقاصد فهي الغايات التي أدّت إلى إنشاء الخطاب، فالتّواصل منهج خطائيّ لبناء معلومات جديدة.

وعرف المتن التّواصلّي، منوالين في معالجته، المنوال السنّي (*modèle du code*) والمنوال الاستدلالي (*modèle inférentiel*) الذي يتفرّع إلى الاستدلال "الغرايسي" والاستدلال "الإفادي"؛ أي ذاك الاستدلال القائم على نظريّة الإفادة، وهو استدلال اعتبره صاحبه، "سبيربر" و"ولسن"، تواصلا لمقاربة غرايس وتطويرا لها.

1.2. المنوال الاستدلالي:

يستند المنوال الاستدلالي على مقوّمات المنوال الترميزي/ السنّي ويتغير عنه فلا يكتفي به. "يقول سبيربر/ ولسن" "نطلق على تواصل ما بأنه استدلاي لأنّ المتلقّي يستدلّ على مقاصد المتكلّم اعتبارا إلى مجموعة من المؤشّرات التي تقود حتما إلى ذلك الفهم"¹، فأساس التّواصل، كما نرى، هو المؤشّر أو الرّمز ثمّ يُبنى الفهم في ضوء تلك المؤشّرات بما يؤدّي إلى تغيير تمثّلات المجموعة المتلقّية، فيتحقّق، بذلك، القصد التّواصلّي الذي يبني عليه "غرايس" نظريّته الاستدلالية. هذه النظريّة التي تجعل من الخطاب المنتج وسيلة لإبلاغ القصد. فإذا لم يتوفّر قصد من نقل المعلومة فلا حاجة لإنجاز الخطاب، ويعتبر التّواصل فاشلا إذا قصّر المتكلّم عن إبلاغ قصده، أو عجز المتقبّل عن فهم ذلك القصد. يقول "سبيربر" و"ولسن" "ليس الخطاب المنتج، بالنسبة إلى غرايس، إلاّ أداة ووسيلة لتبليغ مقصد، فإذا لم يوجد قصد من إنجاز الخطاب فلا حاجة لإنجازه، أما إذا قصّر المتكلّم عن إبلاغ قصده، فإنّ التّواصل الذي أنشأه هو تواصل فاشل"². وفي هذا الإطار سعى "ستراوسن" إلى وضع ثلاثة شروط لإنجاح عمليّة التّواصل وإبلاغ القصد التّواصلّي هي:

حتّى يتمكّن المخاطب من قول شيء ما بالخطاب (خ) يجب على المتكلّم (م) أن يكون له المقصد:

- ي رتج عن تلفظ المتكلّم (م) بالخطاب (خ) الردّ (ر) ويدفع السّامع (س) إلى إنتاج الردّ (ر).

1. Dan, Sperber et Deirdre, (1989), p42.

2. Ibid, p42.

- يتعرّف السامع (س) على مقصد المتكلم (م).

- يدفع تعرّف المقصد (مق) المتلقّي (س) إلى إنتاج الرد (ر) وإن كان التعرّف جزئياً.

يتطلّب إنجاز هذه الشّروط الثلاثة عدداً من الأنشطة الذهنيّة التي يقوم بها المتكلم والسامع متوسّلين بالخطاب حتّى يحدث التواصل بما هو تأثير أحد الطرفين في الآخر أو تأثير كلّ طرف في الآخر. وهذا الجهد الذهني يمكن المتلقّي من إدراك مقصد المتكلم استناداً إلى جملة المؤشّرات التي يوقّرها الخطاب المنجز، يقول "سيرير" و"ولسن" نطلق على التواصل بأنّه استدلائي لأنّ المتلقّي يستدلّ على مقاصد المتكلم استناداً إلى مجموعة من المؤشّرات التي تقود حتّى إلى تلك النهاية (إلى ذلك الفهم)¹ وهذا الجهد الذهني يجعل من العمليّة التواصلية عمليّة عرفائيّة.

غير أنّه يجب الانتباه إلى أنّ الألفاظ والمؤشّرات في المسار الاستدلائي ليست لها قيمة في ذاتها فقيمتها تكمن في قدرتها على استثارة استدلالات في ذهن المتقبّل وحمله على بلوغ مقاصد المتكلم، فقد يكون تخيير اللفظ غير موفق ولكنّ المتلقّي يتوصّل إلى المعنى المقصود، لذلك، لا قيمة للمناسبة بين اللفظ والمعنى في هذا النوع من السيرورة الاستدلالية، فقد يكون اللفظ فصيحاً بليغاً لكنّه لا يبلغ المقصد الذي أراه المتكلم والعكس صحيح، فقد لا يكون اختيار اللفظ موفقاً ولكنّ المتلقّي يدرك المقصد الذي أراه المتكلم. ومن الأمثلة التي يمكن أن نعتمدها في الدلالة على هذا الضرب من القول نورد المثال التالي من كتاب ابن عبد ربّه "العقد الفريد"، يقول: "وقفت امرأة على قيس بن سعد فقالت: أشكو إليك قلة الجرذان فقال ما أحسن هذه الكناية، املؤوا بيتها خبزاً ولحماً وسمناً وتمراً"².

فالمدعى الظاهر من قول المرأة أنّ بيتها خال من الجرذان، والعمل المناسب في هذه الحال، والذي يمكن لقيس بن سعد أن يقوم به، هو ملء بيتها بالجرذان. لكن، إذا أنجز قيس بن سعد هذا العمل فقد جانب قصد المرأة من القول، وكان قراره بملء بيتها خبزاً ولحماً وسمناً وتمراً نابعاً من فهم مخصوص لقولها لم يكتف فيه بتأويل ما أفصحت عنه اللغة معجمياً وإنّما اعتمد فيه منوالاً استدلالياً أفضى به إلى إدراك مقصد القول وهو حاجتها إلى المؤونة في البيت، وقام الاستدلال على مقدّمة محذوفة: تكثّر الجرذان في البيوت ذات المؤونة الوفيرة.

مقدّمة مذكورة: بيت المرأة خال من الجرذان

1. Dan, Sperber et Deirdre, (1989), p42.

2. ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج1، ص256.

النتيجة: حاجة المرأة إلى المؤونة لا إلى الجرذان

ومن الأمثلة التي يمكن أن نذكرها في هذا الموضوع أيضا المثال التالي: "أرسل أحدهم إلى شريك له رسالة يقول فيها: أطلق الحمام. فما كان من شريكه إلا أن توجه إلى مخزن قديم في أطراف المدينة وأطلق سراح شاب كان يحتجزه"¹.

أطلق الحمام في معناها المعجمي لا تؤدي إلى العمل الذي قام به متلقي الرسالة لأن الحمام "طائر" معروف وفعل الأمر يتعلق به. وتحقق الانسجام بين الطلب والعمل الذي قام به الشريك يتطلب فيها مخصوصا للمفوض يستند على المنوال الاستدلالي. ومن هنا نفهم قول "سبيرير" و"ولسن": "لا تنجح عملية التواصل عندما يدرك المتلقي معنى الألفاظ وإنما عندما يقيم استدلالات انطلاقا من المفوضات لإدراك مقصد المتكلم"². بل إن المتلقين لا يهتمون بالمفوض إلا لفهم مقصد الباث وفي ذلك يقول الكاتبان: "لا يعنني المتلقون بالجملة المفوضة إلا للاستدلال على ما أراد المتكلم قوله... ولا ينجح التواصل حين يتعرف المتلقون على المعنى اللساني للمفوض وإنما حين يستدلون على المراد من القول (*le vouloir dire*)"³ فما المنوال السني إلا خطوة أولى في عملية التواصل ولكنها ليست الخطوة الضامنة لتحقيق عملية الفهم.

ومن الاستدلالات التي يمكن أن تُعقد أيضا فتزاح بالمعنى عما وضع له في أصل وضعه نجد ما جاء من القول على منوال المثال التالي:

- الطقس جميل.

تفيد الجملة في معناها الأول تأكيد جمال الطقس. غير أن المقصود ليس بالضرورة الإبلاغ في ذاته وإنما قد تكون دعوة للخروج إلى الزهة وفق السياق الذي وجد فيه المتحاوران، وبالتالي، فالمقصد لم يتحقق بالمعنى الحرفي للمنطوق وإنما بالدلالة السياقية الحاقّة.

تقول ميمونة: "ألا تنسى البدء والخلق؟ اسمع حديث القوم ونبههم فهو أهمّ عليك..". اعتمدت ميمونة بنية الاستفهام، غير أنّها ما بحثت عن جواب للاستفهام وإنما أنجزت أمرا بصرف "غيلان" عن الحوض في حديث الخلق، وأردفت هذا القصد من بنية الاستفهام بأمر صريح "اسمع..". فأنجزت عملا

1. المثال مصنوع.

2. Ibid, p42.

3. Ibid, p42.

ترتب عليه انصراف غيلان عن موضوعه. فقال: "إذن أسمع.. ولستُ بآدم ولستُ بجوّاء. هات حديثك"¹.

وضمن هذا الإطار، وضع "غرايس" مبادئه في التواصل في مقولات أربع هي:
- قوانين الكميّة: ويتفرّع قانون الكميّة إلى: - أن يكون الملفوظ مُبلغاً بقدر ما هو ضروريّ
- أن لا يكون الملفوظ مُبلغاً بما يفوق الضرورة.

- قانون النوعيّة: لا تقل ما تعتقده خطأً

لا تقل ما ليس لك عليه أدلة كافية بأنّه حقيقة.

- قانون العلاقة: - كن مفيداً

- قانون الكيفيّة: - تجنّب أن تعبّر بطريقة مبهمّة

- تجنّب الغموض

- أوجز وأبلغ (كن موجزاً بليغاً).

يشترط "غرايس" أن تكون قوانين المحاورّة حاضرة في أذهان أطراف الخطاب بما يؤمّن نجاح عمليّة التّواصل، فالمعرفة المشتركة بهذه القوانين شرط من شروط التّجاح ومبدأ "غرايس" وقوانينه هي معايير يجب على المخاطب والمخاطب معرفتها حتى يستطيعا التواصل المتخصّب"². فإذا لم يدرك أطراف المحاورّة، مثلاً، أنّ بعض التّوليفات اللفظيّة قائمة قصد إنشاء ما في الكون، بطّلت عمليّة التّواصل وبطل الإنجاز، ولا يمكن أن يؤخذ كلام من يردّد أقوالاً إنجزيّة دون أن يكون على دراية بأبعادها تلك، على أنّه إنجاز، كذا الشأن بالنّسبة إلى فاقد الصّفة، فهذا الشّخص قد يذكر ما اتفق الناس على أنّه أقوال إنجزيّة لكن دون أن يحقّق الإنجاز، فالإنسان العادي الذي يقف أمام منشأ حديث البناء ويعلن مثلاً "لقد أعلننا نحن فلان الفلاني، افتتاح هذا المبنى ليكون مركزاً ثقافياً.. لا يمكن أن يؤخذ قوله على محمل الجدّ إذا لم يكن مؤهلاً ليتحدّث بذلك الحديث. ولئن صُنّفت أعمال "غرايس" باعتبارها نظريّة في المحاورّة فإنّ "سبيرر وولسن" يعتبرانها نظريّة في التّواصل أبعده وأشمل من المحاورّة. وقد يقولان: "صحيح أنّ

1. محمود المسعدي، السّد، ص55.

2. Ibid, p234.

نظرية "غرايس" تقدّم باعتبارها نظرية في المحاورّة ولكنّها تُتناول نسقيًا باعتبارها نظرية أكثر عموميّة للتواصل الشّفوي وغرايس لم يفعل شيئًا لتصحيح هذا التأويل¹.

من هنا تتبيّن أنّ "غرايس" (*Grice*) أسّس لنظرية في التواصل يمثّل المنوال السنّي مدخلها وقصد المتكلّم غايتها وما الرّمز عنده إلاّ وسيلة لإنجاز الاستدلال، يقول جاك موشلار في التداولية اليوم: "إنّ غرايس كان يسلك الطّريق الصّحيحة كما أشرنا، لأنّ نظامه لا يقوم حصرا على رؤية ترميزيّة للغة ولأنّه يستخدم -ولو بكيفيّة صريحة جزئيًا- عمليّات استدلالية في توليد الاستدلالات الخطائيّة"².

■ لتخرُج إلى الحقول.

■ لتخرُج من منزلي.

يشترك المثالان في صيغة الأمر وهو ما يجعلهما، استنادا على المواضع اللّغوية، يفيدان الأمر وهو طلب على وجه الاستعلاء. هذا في المستوى السنّي لمعالجة الظاهرة اللّغوية. ولكن السياق الذي قيلت فيه كلّ جملة يفرض الالتجاء إلى الاستدلال لتأويل المقول. فالمثال الأوّل لجملة الأمر يفيد النصح والإرشاد. أمّا المثال الثاني فيفيد طلب القيام بالفعل على وجه الاستعلاء. وهذا الاختلاف في التأويل نتج عن اختلاف المناويل التي أوّلت بها الجملةتان.

وما تجدر الإشارة إليه في هذا العرض الموجز للاستدلال عند "غرايس" أنّ نجاح المنوال بالنسبة إلى "غرايس" يعود في الأساس إلى اشتراك المتحاورين في معرفة مقاصد بعضهم البعض، فالمنوال الذي يعرضه "غرايس" يستوجب معرفة مشتركة بين أطراف الحوار بقوانين المحاورّة وشروطها والتي تمثل معرفة المقاصد إحداها. وهذا ما جعل منوال غرايس يقف بقدم عند المنوال السنّي وبالقدم الأخرى عند المنوال الاستدلالي.

3. الإفادة من فان ديك إلى سبيربر وولسن:

اعتنى "سبيربر وولسن" بأحد مبادئ "غرايس" في المحاورّة وسعيا إلى تطويره وجعله مدار الاستدلال وهذا المبدأ هو مبدأ الإفادة. واختلفا فيه مقارنتها في تحليل الخطاب عرفانيًا ولذلك وسما

1. Ibid, p243.

2. جاك موشلار وآن ريبول، التداوليّة اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ص 69.

مؤلفها الذي نهتم به في هذا الجزء من البحث بـ"الإفادَة (*La pertinence*)" ثم أعقبا ذلك بإنتاجات مختلفة تحمل العنوان ذاته أو تفرده بظاهرة لغوية محدّدة. وقد دفع بنا الاهتمام بمبحث الإفادَة في تحليل الخطاب إلى البحث في الأعمال التي اهتمت بهذا المبحث إلى جانب "سيرير" و"ولسن" فوجدنا "فان ديك" قد ألّف في المبحث بصفة سابقة لـ"سيرير" و"ولسن" وبصفة مزامنة لها فأثرنا أن ننظر في أعماله علنا نظفر بما يثري العمل ويلقي ضوءا أكبر على نظرية الإفادَة.

1.3. الإفادَة عند فان ديك:

ظهر مفهوم الإفادَة في البحوث الفلسفية وأثار نقاشات عديدة لتحديده وبيان مجاله وقد أكد "فان ديك" ذلك بالقول: "سمح مفهوم الإفادَة بظهور نقاشات حادّة وحيرة تأصيليّة في البحوث الفلسفيّة والمنطقيّة المتعلّقة بالتشارط والاستلزام والمبادئ العامّة للاستنتاج، ورغم محاولات التفسير المتعلّقة بمفهومي البديهي والدلالي فمن الصّعب الادّعاء بفهم دقيق لهذه المحاولات المعقّدة"¹. وهو مع ذلك يحاول أن يحدّها فيقول: "فهم من الإفادَة في الخطاب، وفهم الخطاب، النتيجة المترتبة على، عمليّة أو منبرج أو تحليل، يقوم به السامع أو المتكلّم لتحديد درجة أهميّة بعض خصائص خطاب ما"²، فالإفادَة هي مفهوم يتعلّق بقيمة القول ودرجة إضافته للمعنى العام المتناول في موضع ما، فكلّما حمل جزء من خطاب إضافة جديدة اعتبر مفيدا، وإذا خفّت درجة الأهميّة تضاءلت فائدة الخطاب. كما يعتبر "فان ديك" الإفادَة مفهوما نسبيا "*a relative notion*" تُبنى في احترام المؤرّول لما ورد في النصّ والسياق النصّي ولما ورد خارجه أي السياق المقامي والحالة العادية المفترضة للعوامل، وهي بالنسبة إلى المتكلّم أو السامع إجابة عن بعض الإشكالات وحلّ لبعض المسائل المعقّدة وأجوبة عن بعض الاستفهامات الوارد في النصّ. والإفادَة أيضا عمليّة منطقيّة محض ذلك أنّ المكونات النصيّة تستدعي نقيضها ضرورة، يقول "فان ديك": "يستلزم مفهوم الإفادَة نقيضه: فإذا اعتبرت بعض مكونات النصّ مفيدة، فالبعض الآخر بالضرورة سيكون غير مفيد"³.

1. Van Dijk, (1989), p25.

2. Van Dijk, (1979), pp113-126.

<http://www.discourses.org/OldArticles/Relevance%20assignment%20in%20discourse%20comprehension.pdf>

3. Ibid, p113.

ولئن حضرت الإفادة في أعمال "فان ديك" بصفة لافتة ومثّلت آلية من آليات فهم الخطاب وتبيّن معانيه، فإنّها تعلقت بدليًا بمفهوم الانسجام، ذلك أنّ "فان ديك" لم يضع حدودًا بين المفهومين واستعملهما للإحالة على تصوّر واحد، يقول: "الجدل حول الإفادة، انسجام الخطاب، لم يزل غير دقيق بل ظلّ عامًا"¹ ويقرّ أنّه اضطرّ إلى البحث في العلوم النفسانية وفي تطوير المناويل العرفانية ليتمكّن من مقارنة الخطاب بآليات تسمح بمعالجته وهو ما قرّر له أدوات عمل أكثر عمقا في مقارنة انسجام الخطاب وتبيّن شروط تحقّق إفادته، يقول: "لقد انشغلت على امتداد سبع سنوات بتطوير المناويل العرفانية لفهم الخطاب (وكان ذلك في الأغلب مع ولتر كنتش من جامعة كولورادو) وكان هذا العمل نتيجة طبيعية لبداياتي الأولى في أغلب مقارباتي الشكلية والمجرّدة، والمتعلّقة ببعض المفاهيم مثل الرّوابط أو انسجام الخطاب"².

وقسم "فان ديك" الإفادة قسمين، إفادة نصية- دلالية وإفادة سياقية، أمّا الإفادة النصية بالمصطلحات الواردة في الخطاب والبنى³ المكوّنة له وهي بنى تحمل ما هو مفيد وما هو أقلّ إفادة، فهي إفادة متعلّقة بمكوّنات النص اللفظية والبنوية. وإفادة سياقية تعود إلى القارئ وتبني على محكّات سياقية مثل الاهتمامات والمقاصد والمعارف والرغبات الخ، ويقرّ "فان ديك" أنّ الإفادة تملك وتكتسب التحليل النفسي سياقًا طبيعيًا يتكوّن من معرفة توافقية للمعنى. فالإفادة جزء من اللغة ومن الأنظمة التواصلية. من هنا أمكن لنا تقسيم الإفادة صنفين، إفادة دلالية تتوسّل بسطح النصّ وما يتّجه من علامات لسانية وبنى تركيبية لتكثيف الفهم في الذهن وبين إفادة تداولية تعتمد ما فاض عن النصّ أو ما عبّر عنه "فان ديك" "ما بعد المعنى *after meaning*" وهو ما تستلزمه العلامات اللسانية دون أن تفصح عنه بصريح اللفظ.. بل إنّ معارف أطراف الخطاب هي التي لها الدور الأكبر في تأويل الملفوظ والبنى التي تحضنه.

1. Van Dijk, (1979), p48.

2. Ibid, p55.

3. وضع "فان ديك" للنصّ ثلاث بنى: البنية العليا وهي خطاطة شكلية ترصد المراحل الكبرى للخطاب، والبنية الكبرى وهي عبارة عن موضوع النصّ ويتفرّع إلى بنى كبرى فرعية داخل النصّ. وبنية صغرى في العلاقات الموضوعية بين الجمل.

3.1.1.3. الإفادة الدلالية:

تهتمّ الإفادة الدلالية- النصية، بالعلاقات بين مكونات النصّ في مستوى المصرّح به من اللفظ والتركيب، فهي إفادة "مندمجة في اللغة" إن شئنا، وتشمل الرّوابط الرّاتقة بين الجملة والأخرى في مستوى حروف الاستئناف، والعلاقات السببية والترابطات المنطقية ومقتضيات القول وضمنياته.

والإفادة الدلالية على أضرب، ضرب يتعلّق بالبنية العليا للخطاب، أو ما يعرف في العلوم العرفانية بالخطاطة، وهي بناء مجرّد قابل للتخزين في الذاكرة على شكل رسم يتكوّن من عقد كبرى، أو عناوين تصوّريّة، مترابطة فضائياً متدرّجة شجريّاً، وكلّ عقدة في الخطاطة، أو العنوان تصوّريّ، تنطوي على معلومات متنوّعة يستوجبها ذلك الموقع من القول، وتفرضها التوافقات الاجتماعيّة، ويعرّف "سيربر" الخطاطة فيقول: "تحوي الخطاطة معلومات عن معطيات وأحداث ووضعيّات اجتماعيّة"¹، وضرب يتعلّق بالبنية الدلالية الكبرى، والمقصود بها المعنى العام للخطاب أو المقطع ويشير "فان ديك" بأنّ البنية الدلالية الكبرى تظهر في الجملة أو المقطع أو النصّ في كليّته وتحتزل الموضوع الأساسي لنصّ ما. ويُعبّر عنها بالبنية النصية الكبرى. وتعبّر البنية الكبرى عند "فان ديك" عن القضية التي يتصافر المقطع في التعبير عنها. فالمقطع/ أو النصّ، مفيد متى تمكّن القارئ من تمثّل قضيّة جامعة تعبّر عنه، أي متى تمكّن من بناء "بنية دلالية كبرى"، فإذا تعدّر ذلك، كان النصّ غير منسجم وغير مفيد. يقول "فان ديك" "تظهر الإفادة الدلالية في الجملة أو في المقطع من الجمل أو في الخطاب باعتبارها كلاً، في مستوى الجملة نجد في المقام الأوّل، الإفادة الطّبيعية المتعلقة بتوزيع الموضوع- الخبر (أو البؤرة)"² ويضيف: "يجب أن يعبّر عن الإفادة الإجمالية، بمصطلحات البنى الكبرى، وتحدّد بما هو موضوع الخطاب، محوره، أو ما هو مختصر (*upshot*) مقطع خطاب"³ ونظر في المثالين التاليين لتنتبين مقصد "فان ديك" من البنية الكبرى:

1. Deirdre Wilson and Dan Sperber, (2004), pp607-632.

<http://www.dan.sperber.fr/?p=93>

2. Van Dijk, (1979), p113-126.

(Semantic relevance may be assigned within the sentence, in a sequence of sentences and in discourse as a whole. At the sentence level we first have normal relevance assignment according to topic-comment (or focus) distribution), p115.

3. Ibid, p116.

1- غيلان:.. بل سندعوك معا حتى تؤمني

ميمونة: أو من بماذا؟ إن كان إيمانا بالمرمر الصّلب والخطّ المطلق وعود الحياة اليابس، فقد آمنت منذ زمن طويل.

غيلان: لا يا ميمونة. بل الكفر بالنواميس والحدود والعراقل، وإنكار العجز والإسلام، ونفي العدم. هو الإيمان بالفعل... وأما خطوطك المطلقة، وممرمرك الصّلب وحساباتك وما استبدّ عليك من سجون التّمس والقوة والعقل، فسنبجعلها دخانا نرسله في السماء إرسال المدخّن دوائر تذهب هباء، طريقة كعينيك زرقاء...¹.

2- يتوجّب على كلّ فرد أن يتحمّل مسؤوليته كاملة ولكنّ القطار سافر وتركه وحيدا على رصيف المحطّة ذلك أنّ عدد الجرحى كان هائلا..

في المثال الأوّل (1) يمكن اختزال الخطاب في موضوع متجانس أو في عنوان يعبر عن البنية الكبرى مثل: "يدعو غيلان ميمونة إلى الإيمان الجديد" أو "حديث في الإيمان".

في حين يتأبى المثال الثّاني عن الاختزال في موضوع واحد أو في عنوان؛ أي في بنية كبرى، ممّا يعني أنّ الخطاب غير متجانس وهو لذلك غير مفيد. مع التأكيد أنّ الحصول على البنية الدّلالية الكبرى يستوجب مجموعة من القواعد التي تعرف بالقواعد الدّلالية الكبرى وقد فصل "شارول" فيها القول. في موقع سابق من هذا البحث² وفي أعمال متنوّعة مثل:

(introduction aux problèmes de la cohérence, cohérence et cohésion du discours, cohésion, cohérence et pertinence)

وضرب ثالث متعلّق بالبنية الصغرى، بما هي قضايا وتعالقات وروابط وعمليات استدلالية متنوّعة. ويؤكد "باسكي" "أنّ الخطاب ليس متتالية من الجمل مستقلّ بعضها عن بعض، فمن ناحية يحمل كلّ خطاب علامات اتّساق لسائبة، ومن ناحية أخرى توجد علاقة انسجام بين الجمل تجعل الخطاب متماسكا، فالانسجام لا يقوم دائما على الروابط الاتساقية وإنّما ينهض أيضا على عمليات استدلالية"³

1. محمود المسعدي، السد، ص 49.

2. الباب الأوّل، الانسجام في المقاربة البنيوية التداولية.

3. Philippe, Pasquier et autres, (2003), p11.

وتتنوع الروابط في البنية الصغرى، ويقسمها "فان ديك" إلى صنفين من الروابط، روابط دلالية وروابط تداولية.

1.1.1.3. الروابط الدلالية:

وهي روابط تنشُد إلى بنية الخطاب، وإلى الخطاطة الكامنة في ذهن الباث والمتلقي ونجد في هذه الخطاطة، محتوى الرسالة وكيفية ترتيبها (أي مظاهر انسجامها)، وأخيرا الطريقة التي قُدمت بها الرسالة (التلفظ)، ويعتبر "جيرري هوز" أن مبدأ الانسجام هو الأشد أهمية لأن فهم النص مستقل عن معرفة مقاصد المتكلم العميقة. "وضمن المسار نفسه مع المقاربات الدلالية لا يكون النص منسجما إلا إذا كان قابلا للتمثل ضمن بنية محدّدة وعلاقة بين مكونات الخطاب تصل بين كلّ المقاطع الخطائية.

ويعرّف "فان ديك" الروابط الدلالية بأنها روابط منطقية تربط بين القضايا وتوضّح العلاقات بين الحقائق التي تفصح عنها تلك القضايا، ومن هذه الروابط نجد "الواو" و"لكن" و"رغم أن" و"غير أن"...

2.1.1.3. الروابط التداولية:

هي روابط تختلف عميقا عن الروابط الدلالية وإن كانت تتطابق معها في مستوى الملفوظ. يقول "فان ديك" "يستعمل مصطلح الروابط التداولية لتمييزها عن الروابط الدلالية ففي حين تعبّر الروابط التداولية عن العلاقة بين الأعمال القولية تعبّر الروابط الدلالية عن العلاقة بين الإحالات عن الحقيقة. ولهذا السبب نجد استعمالات مختلفة لمجموعة الروابط نفسها إذ تُصحب الروابط التداولية بتنويعات صوتية وتركيبية مختلفة، وغالبا ما تظهر هذه الروابط إثر جملة مصحوبة بوقف ومحاطة بتنويع صوتي خاص.."¹.

ونورد مثلا على الاختلاف بين الروابط الدلالية والروابط التداولية في المثال التالي:

- أ- لقد همّوا أن يقتلوك في قيامهم عليك، وأن لا ينصرفوا إلا أن يهدموا سدك تهدما ولكنّ صاهباء شاءت بك لطفاً أو غاية قسوة، فصدّتهم وأبطلت أيديهم عنك.²
- ب- أتقول إنّ اللّاجئين توافدوا على المعبر؟ ولكن..
- البارحة.

1. Teun A. Van Dijk, (1979), p447-456.

2. محمود المسعدي، السدّ، ص116.

فإذا نظرنا في الرّابط "لكن"، وجدنا فرقا بين الاستعمال التداولي والاستعمال الدلالي للرّابط نفسه.. فإذا قلنا (أ) لكن (ب) علمنا أنّ "لكن"، مؤشّر حجاجي يفيد الاستدراك، يقول "المرادي": "ومعنى لكن في كلّ مواضعها الاستدراك"¹، وإذا علمنا أنّ العالم ينهض على الشيء وتقيضه أدركنا أنّ (أ) هي تقيض (ب)، وأنّ (ب) هي النتيجة غير المنطقية ل(أ)، وهذا معنى منطقي أملته طبيعة الأشياء ومنطق العالم والاستثناس بما وُضع للفظ من معنى في أصل وضعه وهو ما يعبر عنه المثال الأوّل الذي يقف فيه الجزء الأوّل من القول معارضا للجزء الثاني فيخالف الجزء الأخير النتيجة الطبيعية التي كان من المفترض أن تحدث وهي أن يقتل العمّال "غيلان" وأن يهدموا سدّه، لتكون النتيجة أن "أبطلت أيديهم عنه" فلم يحدث ما همّوا به. وقد تحقّق الرّبط بين الجزء الأوّل من القول والجزء الثاني منه بالرّبط "لكن" الذي قام بالوظيفة التي وضعت له في اللّغة ليحقّق وظيفة دلالية منطقيّة أو هو رابط منطقيّ حجاجي.

أمّا في المثال الثاني فإنّ وظيفة الرّابط "لكن" لم تكن في ما اصطلح عليه القول، وما وضعت له الدّلالة وإنّما كان استعمالا يباين المألوف ويحيل على معنى يدرك من سياق القول الشفوي والمكتوب، فأما في مستوى القول الشفوي، فيكفي للمتكلّم أن ينعمّ الحرف بطريقة تحيل على المعنى المقصود والذي يضاف له السّياق النصّي الذي ورد ضمنه القول ليحيل على دلالة غير دلالة التعارض بين ما سبق وقيل وبين ما ضمّن في الحرف، وأمّا في مستوى المكتوب فإنّ ما لحق من القول يفصح أنّ المعنى الذي دلّ عليه حرف الرّبط ليس ما وضع له في الأصل وإنّما هو معنى إضافيّ فرضه التداول ولم يفرضه الوضع اللّغوي.

فضلا عن هذا الصّنف من الرّوابط، نجد من بين الرّوابط التداوليّة، الروابط التشارطيّة أو العلاقات الشرطية، وهي روابط بين القضايا تعتمد خلق علاقات سببيّة بين القول السّابق والقول اللاحق أو العكس، ويقسم "فان ديك" هذا الصّنف إلى نوعين، روابط تجعل القول الموالي مناسباً للقول السّابق وروابط متعلّقة بالاحتمال والحاجة.

¹. المرادي، الجنى الدّاني، ص171.

فأما الصنف الأول، وهو أضعف الصنفين، فيتمّ بطريقتين: إمّا أن يكون القول الأول تحضيراً للقول الثاني، وإمّا أن يكون القول الثاني تفسيراً للقول الأول. يقول "فان ديك": "فالعامل القولي الأول يوفرّ نوعاً من الخلفيّة للطلب اللاحق"¹.

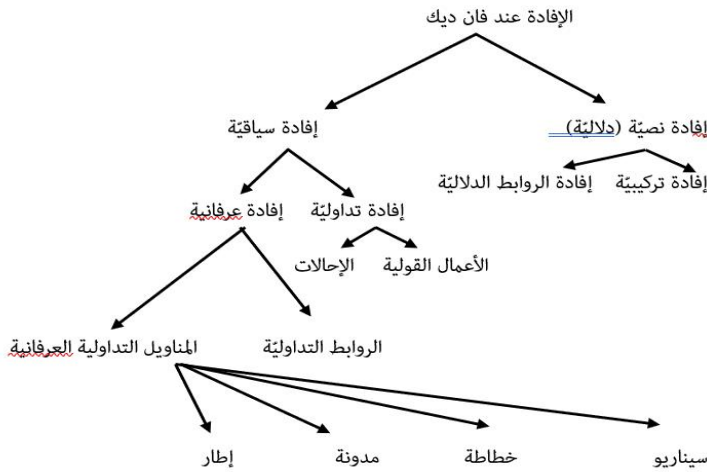
1- الطقس هنا بارد، هل تستطيع من فضلك أن تغلق الباب؟

2- هل تستطيع أن تغلق الباب؟ فإنّ الطقس هنا بارد.

في المثال الأول، مثلت الجملة "الطقس هنا بارد" تمهيداً يبرّر طلب إغلاق الباب وكانت خلفيّة معرفيّة لما لحق.. أمّا في المثال الثاني فقد سبق الطلب إلى التلقّظ وعندما أعقبته الجملة "الطقس هنا بارد" إمّا جاءت لتفسّر الطلب وتعلّل قيامه.

وأما روابط الاحتمال، فهي روابط تهض على الصّبح العلميّة وعلى القواعد المنطقيّة وتندرج ضمن البعد الاستدلالي للقول بما هو قياس منطقيّ بقواعده المختلفة مثل قاعدة الحذف أو قاعدة التخيير (إمّا... وإمّا..).

ويمكن أن نختزل نظريّة فان ديك في الإفادة في الخطاطة التالية:



1. Van Dijk, (1989), p448. "the first act precisely provides such a ground for the following request"

تتفرّع خطاطة "فان ديك" إلى بعدين؛ بعد بنيوي وبعد تركيبّي من ناحية وعلى البعد التداولي ببعديه "المندمج في اللغة" والعرفاني من ناحية ثانية، وهو موقف يدلّ على أنّ الخطاب لا يُختزل في بعد واحد، وأنّ العرفاني لا يستغني عن التركيبّي في الإفصاح عن مقصد القول واستتبعاته. كما تفصح خطاطة "فان ديك" عن مفهوم للإفادة يتأثل ومفهوم الانسجام؛ إذ لا يضع "فان ديك" حدودا بين المفهومين. فهما في علاقة بدليّة أحدهما من الآخر.

2.3. الإفادة عند "سبيربر" و"ولسن" (D. Sperber / D. Wilson):

ننظر في الإفادة عند "سبيربر" و"ولسن" استنادا على كتابهما "الإفادة" ونحاول أن نتبين خصائص هذا المبحث ومميّزاته وعلاقة "الإفادة" بفهم الخطاب وتأويله. ونحاول الاستفادة ممّا أضافه "سبيربر" و"ولسن" في الموضوع في أعمال لهما مشتركة مثل، كتاب "الإفادة" (La Pertinence) الذي يمثّل عمدة عملنا إضافة إلى مجموعة من المقالات التي استفدنا من بعضها باعتبار ما تمكّننا من الحصول عليه، ومن هذا الأعمال نذكر: "Relevance Theory"¹ و"Forme linguistique et pertinence"² و"*Fodor's Frame problem and Relevance Theory*"³ وغيرها من الأعمال المشتركة أو الفردية التي سنذكرها كلّما تعرّضنا إليها في متن العمل. ونهدف من النظر في هذه الأعمال إلى تبين دور الإفادة في مقارنة الخطاب عموما والخطاب الحجاجي خصوصا ونحاول أن نخرج به من الخطاب الشفوي إلى الخطاب المكتوب؛ إذ نعتقد أنّ الخطاب المكتوب هو استعادة للخطاب الشفوي بشكل من الأشكال. وستكون الأمثلة التي سنعمدها مأخوذة من مدوّنة مكتوبة أساسا.

ومرّ مبدأ الإفادة عند "سبيربر" و"ولسن"، كما كان الحال عند "فان ديك"، بمراحل عملا فيها على تطويره وإحكام القول فيه والسيطرة عليه، وطوّرا النظرية في مراحل عدّة، فنشرنا دراسة مفصّلة في كتاب "الإفادة: تواصل وعرفان" (1986 و1987) ثمّ حينها في السنوات (1995، 1998، 2002).

1. In Horn, L.R and, G., (2004), p93.

2. Cahier de linguistique française, II.

<http://clf.unige.ch/display.php?numero=11&idFichier=308>.

3. Reply to Chiappe and Kukla, (1996).

وتتنزّل مقارنتها ضمن مباحث التواصل والعرفانية (*communication et cognition*) وترتبط بعلم النفس وما يوفّره من معطيات حول تمثيلات الفهم والاستدلال وعلم الحاسوب وآلية معالجة للمعلومة. ولئن اعتنى "فان ديك" بالبعد البنيوي للإفادة إلى جانب بعدها الذهني فإنّ "سيرير" و"ولسن" يقصران النظر في الإفادة في بعدها العرفانية فيعنيان بما أطلق عليه "فان ديك" الإفادة السياقية (*La Pertinence Contextuelle*) ويريان أنّ الإفادة حدس يمكن الفرد من الحكم على الكلام بأنّه مفيد أو فائد للإفادة. فالمتلقّي يملك قدرة طبيعيّة على التمييز بين قول مفيد وقول غير مفيد. يقولان في "الإفادة: تواصل وعرفان"، "يبدو لنا أنّ للبشر حدوسا (*intuitions*) للإفادة؛ أي أنهم قادرون على تبيّن الفرق بين معلومات مفيدة ومعلومات غير مفيدة وأن يميّزوا بطريقة منسجمة، وهم قادرون في بعض الحالات، على التمييز بين المعلومات الأكثر إفادة وتلك الأقلّ إفادة"¹. فيكون الانسجام بذلك هو معيار الإفادة، فإذا انسجم القول أفاد وإذا لم ينسجم لم يفد. تمثّل الإفادة، بهذا المعنى، قوام التواصل وشرط نجاحه، وصنّف "سيرير" و"ولسن" الإفادة إلى نوعين يختلفان ليتكاملا وهما الإفادة المقارنتية والإفادة التصنيفية.

1.2.3. الإفادة المقارنتية:

يفاضل الكاتبان بين الإفادة المقارنتية والإفادة التصنيفية معتبرين التعريف المقارني أكثر إفادة من التعريف التصنيفي، غير أنّ هذه المفاضلة تصبح غير ذات جدوى متى أدركنا علاقة التفاعل بين التعريفين. وسنحاول في هذا العرض السريع لتعريف الإفادة، السيطرة على المفهوم وتبّع خواصّه وتبيّن العلاقة التفاعلية بين صنفَي الإفادة حيث تفرض علينا دواعٍ منهجية التوقف عند كل تعريف على حدة، ونبدأ بالإفادة المقارنتية.

يضع الكاتبان لهذا الصنف من الإفادة شرطين:

- الشرط المقارني الأول: تكون فرضية مفيدة أكثر بالنسبة إلى الفرد عندما تكون التأثيرات السياقية الحاصلة بعد المعالجة أوفر.

- الشرط المقارني الثاني: تكون فرضية ذات فائدة أكبر عندما يكون المجهود المبذول في معالجتها أقلّ.

1. Dan Sperber et Deirdre Wilson, (1989), pp182-183.

وبعبارة إدماجية للشرطين تكون الإفادة أكبر، كلما تزامنت وفرة الدلالات مع مجهود ذهني أقل. وبذكرنا هذا الشرط في جزء منه بمفهوم البلاغة عند العرب حيث يشترط البلاغيون وفرة المعنى وقلة اللفظ، فخير الكلام ما دلّ قليله على كثرته، وخير الكلام ما قلّ ودلّ. تقاس الإفادة المقارنتية، إذن، بالتأثيرات السياقية التي تحدثها وبالمجهود المبذول للحصول على تلك التأثيرات، ويخضع لشرطين: التأثيرات السياقية التي تنتج عن تمثيلات ذهنية بيولوجية والجهد المبذول في إنتاج تلك السياقات.

وقد استعار الكاتبان هذا المفهوم من المؤسسة الاقتصادية التي تقاس مردوديتها بالعلاقة بين ما يخصص لها من مجهود واعتمادات وبين ما تنتجه من مادة. فالمرودية تقاس بالعلاقة بين المجهود الذي يبذله الذهن وبين التأثيرات السياقية التي تنتج عنه. وكلما كان المجهود أكبر، كانت درجة الإفادة أقل، يقول "جاك موشلار": "ليس مفهوم الإفادة مفهوما مطلقا وإنما هو تصوّر مقارني يحدّد بالشكل الموالي: كلما أنتج ملفوظ ما تأثيرات سياقية كان أكثر إفادة. وكلما تطلّب مجهودا ذهنيا أكبر كان أقلّ إفادة"¹؛ أي كلما قلّ الجهد وتعاطم التأثير تحققت الإفادة، أما كلما تعاطم الجهد فقد قلت الإفادة...

وتعتبر خاصية المرودية إحدى أهم المميزات، وهي خاصية لها سند في علم النفس العرفاني وتكمن أهميتها في قدرة العقل على تقييم المدركات الحسية التي يتفاعل معها لإنتاج دلالة ذات إفادة تجعله يقرر إما أن يواصل في مسار التأويل نفسه والذي سلكه وإما أن يعدّل من الاستنتاجات التي توصل إليها، يقول الباحثان: "ليس قيس التأثيرات السياقية والمجهود المبذول مبنيين متعلقين بالإفادة أو التداولية فحسب وإنما هما مبحثان بدرجة واحدة ضمن علم النفس بصفة عامة غير أنّهما يأخذان شكلا خاصا في إطار نظرية الإفادة والإشكال في الحقيقة لا يمكن في قيس العلاقة بين المجهود المبذول والتأثيرات السياقية المنتجة وإنما يمكن في توصيف كيفية تقييم العقل ونتائجه ومجهوداته بنفسه من الداخل وكيف يقرر، نتيجة لذلك، أن يواصل مجهوداته في الاتجاه نفسه أو أن يعدل إلى مسار آخر"²؛ أي كيف يشتغل الدماغ وكيف يتفاعل مع ما يصله من السياق الذي يوجد فيه.

وفي الحقيقة يتوقف نهج الذهن لمسار محدد، سواء بالمواصلة في نفس الوجهة أو العدول إلى منحى جديد على مدى وضوح التصوّر الذي تمثله البات في ذهنه وعبر عنه، وعلى مدى الانسجام الداخلي

1. Jacques Moeschler, (1995), p28. (en PDF, p10).

<https://sites.google.com/site/moeschlerjacques/publications/articles-1996-1995-1994>.

2. D, Sperber et D, Wilson, (1989), p198.

للقول بحيث يتجلى واضحا في ذهن المتلقي لا لبس فيه. يقول "سبيربر وولسن": "تكون فرضية مفيدة عند فرد ما في لحظة محددة إذا كانت على الأقل مفيدة في سياق قابل للتمثل عند فرد ما في لحظة بعينها"¹ من هنا كان للإفادة، إلى جانب خاصيتها المقارنتية، خاصية تصنيفية في علاقتها بالفرد، اعتبارا إلى أن خاصية الوضوح والمسارات الذهنية التي يعتمدها متلقي الخطاب في فهمه للمقول تدخل ضمن البعد التصنيفي للإفادة لا ضمن بعدها المقارني ولهذا كنا قد تحدثنا عن التداخل بين البعدين المقارني والتصنيفي ونهنا إلى أن الفصل هو فصل منهجي لا غير.

2.2.3. الإفادة التصنيفية:

يعتبر هذا التصنيف للإفادة الأكثر تشعبا في تبين أسباب انسجام الخطاب ووضوحه عند المتقبل وعند الذات التي يصدر عنها. وأول خاصية وجب توفرها لتحقيق الإفادة هي ما وقفنا عليه في الإفادة المقارنتية: أي خاصية الوضوح والجلاء. يقولان: "تكون الظاهرة مفيدة عند شخص ما، إذا كانت، فقط إذا كانت، إحدى الفرضيات، جلية، مفيدة عند ذلك الشخص"²، فالوضوح والإفادة على غاية من التلازم بل إن البيان والجلاء من شروط تحقق الإفادة.

يتطابق مفهوم البيان كما طرحه الكاتبان مع مفهوم الوضوح. والبيان شرط من شروط انسجام الخطاب وإفادته وقد تناول الكاتبان مفهوم الوضوح والبيان من بعدين:

- أما الأول فهو سحب هذا التصور على الفرضيات الذهنية المجردة والخروج به من رتبة الأحداث الواقعية، فالوضوح لا يتعلق ضرورة بالبعد المادي للمدركات وإنما يمكن أن يتعلق أيضا بالبعد التجريدي الافتراضي الذي يقوم على عمليات محض ذهنية ليس من الضروري أن يكون لها حضور في الواقع..

ويدعونا هذا المبدأ إلى توسيع دائرة الوضوح إلى ما تعقد من تلك الفرضيات التي ليس لها وجود واقعي أو شبه واقعي، فلا يتعلق الوضوح فقط بما أمكن اختباره بالحواس مثل البصر أو اللمس أو غيرها من الحواس لتتحدث عن وضوحه وتجليته، وإنما قد يكون المعروض فكرة مجردة أو استدلالا ذهنيا ليس له بالضرورة وجود مادي. ولكنه يبدو جليا واضحا عند منتج الخطاب ومتلقيه.

1. Ibid, p218.

2. Ibid, p229.

- وأما الثاني فهو اختلاف درجات الوضوح بين فرضية وأخرى. وقد لاحظنا أنه يمكن أن تلتبس الفرضيات الخاصة بمعارف حديثة حقيقية (*connaissances factuelles véritables*) شأن الخداع البصري الذي يمكن أن يلتبس مع الإدراكات الحسية البصرية الحقيقية. ومن الأمثلة على ذلك في ما يتراءى على الإسفلت من خيالات عند اشتداد الحرارة أو ما يتبدى لتائه في الصحراء من سراب، إلى غير ذلك من الأمثلة؛ إذ يلتقط الإدراك البصري مؤثرا من المحيط الفيزيائي فيقرعه في القدرة الذهنية فينتج حقيقة جلية للذهن بقطع النظر عن صحتها ومطابقتها للواقع أو فسادها واختلافها معه. من هنا، كان تأكيدها أنّ الفرضيات الخاطئة يمكن أن تتجلى للفرد صحيحة، ذلك أنّ الفرضية هي نتيجة لمؤثرات تقع في الفضاء الفيزيائي ينتج عن التقائها بالقدرة الحسية الإدراكية تجلّ ما، يكتسب صحة أو فسادا من تفاعل بين الحقلين (الفيزيائي والعرفاني) لذلك يقولان: "تكون فرضية جلية في محيط عرفاني إذا وقر هذا المحيط ما يكفي من المؤثرات بما يتلاءم واختياره وهو ما يكون أحيانا حال الفرضيات الخاطئة"¹. فإذا نزلنا هذا الشرط في مجال الخطاب تبيّن أنّ جلاء الفكرة أو الفرضية في الخطاب لا تتوقف على صدقية القول وإنما على مدى تجلّيه في الذهن؛ أي قدرة الباث مثلا على اختيار وحدات لغوية بما هي مؤشرات فيزيائية تتلاءم والقدرة الذهنية للمتلقّي، فتجعله يستنتج فرضيات جلية بمثابة الحقائق، وهو شبيهه بمجال المغالطات عند أرسطو .

ويلتقي هذا الشرط في مستوى المنهج الخطابى مع الاستدلال البرهاني الذي يقوم على فرضيات تنتهي باستنتاج بناء على ضمان ما، ولا تحدّد صحة الفرضية وضوحه وإنما يحددها منطقها الحسابى الاستنتاجى (*déductive*) الذي يصحّ متى خضع لشروط الاستدلال البرهاني ويجانب الصواب متى خالفها لا متى تطابقت النتيجة مع الواقع أو خالفته ومن المغالطات ما يروى عن الحجاج بن يوسف في تبريره لحرق خيمة رُوح، ويقول الخبر: "شكا عبد الملك إلى روح انحلال عسكره وأنهم لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله، فقال له: إنّ في شرطي رجلا لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحل الناس برحيله أو أنزلهم بنزوله. وذكر له الحجاج قلده شرطته. فلم يكن أحد يتخلف إلا أعوان روح بن زبناغ. فوقف عليهم يوما وقد أرحل الناس وهم على طعام يأكلون. فقال لهم ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين؟ قالوا: انزل يا ابن اللّخاء فكل معنا. فقال لهم: هيات، قد ذهب ما هنالك. ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوّقهم في العسكر وأمر بإحراق خيمة روح نفسه، وشكا روح إلى الخليفة فلما أحضر الحجاج قال: ما

1. D, Sperber et D, Wilson, (1989), p66.

أنا فعلت وإنيّ فعله أمير المؤمنين، إنّما يدي يدك وسوطي سوطك وما على أمير المؤمنين أن يصرف لروح عوض الفسطاط فسوطاطين وعوض الغلام غلامين ولا يكسرنني فيما قدّمني له..¹.

انبنى حجاج الحجاج في هذا الموضع على مغالطة استدلالية برهانية وهي:

أ- الحجاج هو يدُ أمير المؤمنين وسوطه

ب- حرق الحجاج خيمة رُوح تمت بيد أمير المؤمنين وسوطه

ج- الأمير من حرق الخيمة لا الحجاج.

وهو استنتاج جليّ ويبيّن استلزامه البناء البرهاني الذي وضعه الحجاج والذي لا تبدو مقدّمته الكبرى واضحة في ذهن الأمير فقط وإنيّ هي مسلمة لا يرقى إليها الشكّ.

وفي الإطار ذاته نورد الخبر التالي المتعلق بالحجاج أيضا حيث بعث برسالة إلى الخليفة عبد الملك يقول فيها: "إنّ الخليفة عند الله أفضل من الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين لأنّ الله خلق آدم بيده وأسجد الملائكة له وأسكنه جنّته ثمّ أهبّطه إلى الأرض وجعله خليفة وجعل الملائكة رسلا إليه"².

أقام الحجاج حجّته على قياس منطقيّ تبدو مقدّمته الكبرى محذوفة:

3- من يُسجد له فهو الأفضل (مقدّمة كبرى محذوفة)

4- الملائكة سجدوا لآدم

5- آدم (وهو خليفة الله في الأرض) أفضل من الملائكة والخليفة (عبد الملك) هو آدم.

كما أقام استدلالا ثانيا مقدّمته الكبرى محذوفة أيضا:

أ- من تُرسل إليه الرّسل أفضل من الرّسول (مقدّمة كبرى محذوفة)

ب- خليفة الله في الأرض (بما في ذلك عبد الملك) يرسل الله له الملائكة

ج- خليفة الله في الأرض (عبد الملك) أفضل من المرسلين والنبين.

وتوسّل الحجاج في هذه الاستدلالات بما تحزّنه الذاكرة من حقول دلالية للألفاظ المستعملة حيث تلتبس المعاني فتتيسر المغالطة باللغة وهي مغالطة بين آدم/ الإنسان والذي هو خليفة الله في

1. عبد الجليل عبدة شلبي، الخطابة وإعداد الخطيب، ص 236.

2. المصدر نفسه، ص 243.

الأرض وبين ما اصطُح عليه القوم من أنّ الخليفة هو أمير المؤمنين، وهذا التطابق الصوتي بين المعنيين جعله الحجاج بمعنى واحد ثمّ سهّل عليه تبليغ المعنى. ويعتمد هذا النمط من الخطاب المغالطي أيضا في الدعاية السياسية وتشويه الخصوم. كما يستعمل في الإشهار للسلع للإقناع بقيمتها. ومن أمثلة تشويه الخصوم:

- الشيوعية كفر
- هذا شيوعي
- إذن فهو كافر.

تعتبر الإفادة التصنيفية إفادة سياقية تستمد مظاهرها من حقول متعدّدة ولذلك نطلق عليها إفادة السياقات، وإذا اعتبرنا الإفادة ما يتحقّق من تواصل ناصح للخطاب مع المتلقّي وما يحدث في الذهن من تجلّ للملفوظ وفهم كان لزاما أن ننزل هذا الفهم ضمن السياقات التي ظهر فيها الملفوظ حتى يتحقّق الجلاء والبيان وتتحقّق الإفادة. ويمكن أن نحدّد هذه السياقات في السياق النصّي/ الخطابي والسياق العرفاني والسياق المقامي.

3.2.3. إفادة السياقات:

1.3.2.3. السياق النصّي:

يشمل السياق النصّي ما ورد متن الخطاب من ملفوظات وقضايا تمهد لفهم ما يتلوها من ملفوظ. وتتفق أغلب البحوث التداولية على أنّ سياق فهم الملفوظ، ليس محلّ اختيار؛ إذ أنّه سياق أسسته الأقوال السابقة وما الملفوظ الجديد إلا بناء على ما سبق ذكره من قول، ولا يمكن أن يفهم هذا الملفوظ إلا إذا ربط بما سبقه وهو لذلك "يرد مكتملا في كلّ لحظة من التبادل اللغوي"¹ ويؤكد الكاتبان أنّ السياق مكتمل قبل أن يبدأ تمثي الفهم، ففهم الملفوظ يتحدّد بما سبقه من ألفاظ داخل الخطاب نفسه؛ أي يتحدّد بمجموع الفرضيات التي سبقته وهو ما يعني أنّ المكونات المعلنة في الخطاب تشرّع للأقوال اللاحقة فيه وتجعل منها ذات دلالة. وقد استدللّ الكاتبان على هذه الخاصية بالمثل التالي:

"- بيار: أنا متعب

1. Dan, Sperber et Déridier, Welson (1989), p202.

- ماري: إذا كنت متعبا، سأعدّ العشاء"

وخلصا إلى أنّ إفادة جواب "ماري" تتوقف على تصريح "بيار" سالف الذكر، هذا التصريح الذي يجعل للأقوال دلالة سياقية نصية حيث إنّها مرتبطة بما سبق ذكره في الخطاب ذاته، وهو ما يذكّرنا بالروابط التداولية كما وصّحها "فان ديك" والتي تربط مكونات الخطاب بعلاقات قبلية وأخرى بعدية.

يقول المسعدي في السدّ: "مميونة: أو تخاف ألا أقدر عليه في زلزلته وأنفاسه؟

- غيلان: نعم يا مميونة. لأنك لم تتعوديه.

مميونة: (وهي بارزة من الخيمة) من لم تخفه الجبال لا يخاف السدود. أنا إليك. هذه العقبة¹.

فجواب غيلان وتعليقه كانا استجابة لسؤال مميونة سابق القول "أو تخاف...؟" وتعليقه لسبب الخوف كان مبررا لها لتعقب "من لم تخفه الجبال..." فتعلقت إفادة كلّ مخاطبة بسياق القول الذي سبقها وأنجزت دلالتها السياقية الخاصة النصية الخاصة بها.

1.1.3.2.3. الاستلزمات السياقية (*implications contxtuelles*):

يلتزم الكاتبان إلى ضرورة أخذ الاستلزمات السياقية بعين الاعتبار. فالأقوال تستمد مشروعيتها وإفادتها من الاستلزمات السياقية (*implications textuelles*) المترتبة على القول وليس عن القول ذاته فقط:

- بيار: أنا متعب.

- ماري: سأعدّ الغداء..

تبدو العلاقة بين ما صرّح به "بيار" وما عقيبت به "ماري" دون إفادة بما أنّه لم يلتزم بالمصرّح به في سياق القول السابق إذا اعتبرنا السياق يتعلّق فقط بالمصرّح به من اللفظ. غير أنّ هذا القول يغدو منسجما إذا اعتبرنا ما يحتمله من استلزام وقع السكوت عنه وهو هنا أنّ "بيار" متعب ولا يستطيع إعداد الغداء.

1. محمود المسعدي، السد، ص99.

وهنا نجد نوعاً آخر من العلاقات هي العلاقات الاستدلالية لتقف مع الكائنين على نوعين من الروابط في الخطاب، روابط تداولية وأخرى استدلالية فالسياق يراعي، إلى جانب احتمالها لما هو مصرّح به من أقوال، أيضاً ما وقع السكوت عنه واستلزمه القول ضمناً كما يأخذ في الاعتبار مقاصد المتكلم الأول الذي لا يفصح عنها ضرورة باللفظ.

فالسّياق، بهذا المفهوم، ليس بما ذكر من فرضيات فقط وإتّما بما لم يصرّح به من ألفاظ ليكون بذلك نتاجاً للمعلن من القول بصريح اللفظ وللضمني بما يستدلّ منه على مقاصد المتكلم.

يتنزّل السياق بهذا المعنى، ضمن المستوى التداولي للخطاب، ولكنه تداولي يأخذ في الاعتبار البعد الذهني العرفاني للقول، وذلك بتنزيل الظاهرة اللغوية ضمن نظرية فودور الطرفية/ القالبية. فهو سياق تداولي في مستوى الإحالات والتضمين والضمنيات والأعمال اللغوية وهو عرفاني باعتبار انتماء الملفوظ إلى النظام الطرفي للدماغ، وهو إدراك حسي يقع تأويله في المستوى المركزي للدماغ ويعقد استدلالات هي من صميم البعد العرفاني رغم ارتباطها بالسياق النصّي.

غير أنّ هذين المكوّنين يبدوان أيضاً غير كافيين لتحديد السّياق الذي يؤمّن إفادة الأقوال، وإنّ للمعرفة المخزّنة في الدّهن في شكل مداخل موسوعيّة دوراً أساسياً في تحقيق الإفادة من عدّها.

2.3.2.3. السّياق العرفاني

1.2.3.2.3. المداخل الموسوعيّة:

أخذت النظرية العرفانية عن علم الحاسوب آلية التخزين في ذاكرة الجهاز في شكل ملفات يختصّ كلّ منها بموضوع، ويكتفي الباحث عن المعلومة بعد ذلك بأن يضع مؤشراً عن الموضوع حتى يستجيب الحاسوب بإيراد ما خزّنه في ذاكرته الموسوعيّة من معلومات لها علاقة بالمؤشّر الذي ذكر. ثمّ سحّب هذا المنهج على الذاكرة البشرية التي يرى العرفانيون أنّها تخزّن المعلومات في الذاكرة طويلة المدى في شكل ملفات/ أو مداخل تكتسب صفة الموسوعيّة باعتبار ما تخزّنه من ظواهر في ذاتها وما تخزّن حول تلك الظواهر من معلومات.

وتعتبر المداخل الموسوعيّة مكوّناً أساسياً من مكوّنات السّياق. فيتفرّع اللفظ في تلك المداخل بحثاً عن الدّلالة المقصودة من القول.

وقد اعتمد "سبيربر" و"ولسن" مثال "بيار" الذي قال إنني متعب وماري التي أجابته بأنّ المحلّيات قد أعدت، وأنّها ستعدّ الطبق الرئيسي، فإجابة "ماري"، إضافة إلى أنّها تتضمّن ما استلزمه خطاب "بيار" من أنّه يريدّها أن تعدّ الغداء، فإنّها تستند على معرفة موسوعيّة تعتبر أنّ الغداء يتكوّن من طبق رئيسيّ ومحلّيات¹. ولئن كان هذا المدخل الموسوعي شموليًا فإنّنا نجد مداخل موسوعيّة جزئية نوعا ما، من ذلك قول "ماري" لـ"بيار" إنّ المحلّيات حاضرة وإنّها ستعدّ "الأسو-بيكو"، فهذا القول لن يستند، كي يكتسب مبدأ الإفادة، على ما صرح به من لفظ ولا على ما ضمّن في القول وإنّما يستند على معرفة موسوعيّة تعتبر أنّ هذا النوع من الأكل يصنّف ضمن الأكلات الرئيسيّة. فإذا أضفنا معرفة موسوعيّة سابقة بأنّ الغداء يتكوّن من أكلة رئيسيّة ومن طبق للتخلية توقّر لدينا عنصر رابع لتحديد السياق وهو المدخل الموسوعي الجديد الذي يذكر في سياق الحديث فيتكوّن السياق تبعاً لذلك من ملفوظات تصرّحيّة (*énoncées explicites*) وأخرى تضمينيّة (*énoncées implicites*) ومن مدخل موسوعيّ ضمنيّ (*implicites entrées encyclopédiques*) ومن مداخل موسوعيّة جديدة (*nouvelles entrées encyclopédiques*) تذكر أثناء القول.

يخضع اختيار السياق في عمليّة الفهم، إذن، إلى محتويات ذاكرة الفرد الاستنتاجيّة. وإلى الذاكرة الموسوعيّة من ناحية وإلى المعلومات الجديدة المستمدّة من الإدراك في المحيط الفيزيائي من ناحية أخرى. وهذه العوامل لا تحدّد سياقاً واحداً وإنّما مجموعة من السياقات الممكنة.

2.2.3.2.3. المحيط العرفاني (*environnement cognitif*):

يمثّل المحيط العرفانيّ مكوّناً أساساً في تحقيق انسجام الخطاب، وإغفال هذا المحيط عند إنتاج الدلالة أو الإغضاء عنه هو عدول بالخطاب عمّا وُضع له وقُصد إليه وهو إيذان بقصور الفهم وفشل العملية التواصليّة، هذه العمليّة التي تهدف إلى تغيير مكتسبات طرف ما بتقديم معلومات جديدة تتفاعل مع المعلومات السابّقة فتلغيها أو تثبتها أو تعدّلها. ويشترط التغيير وجود وضع سابق قوامه معلومات سابقة مشتركة بين المجموعة البشريّة الواحدة والقائمة بالفعل التواصلي، ولا يفترض أن يكون لهذه المعرفة المشتركة نظير في الواقع المادّي ولا تعدو أن تكون بناء يقوم على جملة من الأركان التي تكوّن المحيط العرفانيّ والذي يتكوّن بدوره من المحيط الفيزيائيّ والتمثلات التي يحملها الفرد عن ذلك المحيط. فالإنسان عموماً

¹. اعتمدنا ما أورده سبيربر وولسن في كتابهما الإفادة في نسخته الفرنسية التي نعتمدها بين الصفحتين، 205-201.

يعيش في فضاء، له خصائص محدّدة في الزّمان وفي المكان وفي التاريخ وفي المعارف وفي الثقافة إجمالاً، وفي التقاء الإنسان بهذا الفضاء يحاول أن يفهم ما يدور حوله قدر المستطاع وهو في الوقت ذاته يبني تمثّلاته الخاصّة وتمثّلاته عن العالم الفيزيائي الذي يتشاطر مع الآخر، وفي بنائه لتلك التمثّلات يختلف عن الآخر الذي يتقاسم معه الفضاء الفيزيائي نفسه. ويعود الاختلاف إلى أسباب لعلّ أهمّها اختلاف المحيط الفيزيائي الخاص من فرد إلى آخر فقد تتشارك المجموعة في فضاء شاسع بخصائصه الحضارية العامة ولكن يختصّ كلّ فرد من هذه المجموعة بفضاء فيزيائيّ خاصّ به فقد يشترك (أ) و(ب) في الانتماء إلى مدينة تونس غير أنّ (أ) يلتقي إلى حيّ شعبيّ و(ب) يلتقي إلى حيّ راق، فهما يلتقيان في الانتماء إلى الفضاء الفيزيائي الأرحب ولكنهما يختلفان في الانتماء إلى الفضاء الفيزيائي الضيق الخاصّ. كما أنّ فعالية القدرات الحسيّة الإدراكية للإنسان (من سمع ولمس وبصر وتدوّق وشمّ) تختلف من فرد إلى آخر وهذا الاختلاف ينطبق أيضاً على القدرة الاستدلالية التي تختلف بدورها من شخص إلى آخر. فالتمثّلات هي قرح لمدرجات حسيّة في ما خزنته الذاكرة من معارف وفق استدلالات تختلف قدرة إنجازها من فرد إلى آخر، وفي اختلاف تلك القدرة اختلاف للمنجزات الجديدة التي تتمكّن بالذاكرة وتعيد صياغة تمثّلاتها للواقع وفق تفاعل قدراتها الإدراكية الحسيّة وقدراتها الاستدلالية ومكثباتها السابقة، من هنا، كان القول إنّ المعرفة المشتركة، التي قد تبدو متطابقة بين المجموعة البشرية التي تحتلّ فضاء جديداً واحداً، بناء فلسفيّ ليس له نظير في الواقع الموضوعيّ باعتباره يخضع إلى تجربة الفرد التي لا تطابق في كلّ الأحوال تجربة الآخر، فالتاس يجرون لغات مختلفة وسيطرون على مفاهيم مختلفة، وهو ما يجعل تمثّلاتهم للكون والاستدلالات التي ينتجونها مختلفة باختلاف المعرفة التي يصدر عنها، ويمكن أن نستشهد بالمثل "أثّج الخبر صدره" فهذا القول يطلقه العرب، سكان المناطق الحارة، على الخبر المريح الذي يتمّ عن الفرح والذي يتفاعل معه الإنسان إيجاباً، ويعبّر البرد في "أثّج" عن تصوّر يرى في البرد علامة حياة وانتعاش.. وإذا تحوّلتنا إلى الأماكن الباردة، "أروبا" مثلاً، نجدهم يعبّرون عن الخبر المريح بالقول "أدفاً" الخبر صدره' في تصوّر يجد في الدّفء إمكان حياة في ظلّ البرد الذي يعصف بالأرواح سنوياً. فالتجربة الدّاتية والمكان المخصوص هما اللذان كانا وراء اختيار اللّفظ ووراء المقاصد التي يريد كلّ متحدّث أن يتواصل بها مع الآخر.

هذا، إضافة إلى أنّ اكتساب التّاس لغات مختلفة يجعلهم يملكون تمثّلات مختلفة، وبالنتيجة فالتّمثّلات التي ينشعونها والاستدلالات التي يستطيعون القيام بها مختلفة أيضاً وسنأخذ مثلاً على ذلك هذا المقطع من كتاب السدّ للمسعدي: "هي: ألا نخط على البغل؟ يقبلان على البغل يريدان أن

يحطّأ عنه. فإذا هو أيضا رافع رأسه كالناظر إلى الجبل. هو (للبلغل) أو أنت أيضا؟ هي: لا يا غيلان، إنّا هو أن ثقل الظهر فامتدّ العنق وارتفع الرأس. كذا الدواب جميعا إذا انقضّ الحمل ظهرها.. وكذا العباد. غيلان: تعنين؟ هي: الصلاة والدّعاء. تنقضّ الأعباء ظهور العباد فتمتدّ الأعناق وترتفع الأبصار والرؤوس وتكون الصلاة ويكون الدّعاء.. (تبتسم) وأنت إله البلغل. بل انظر إليه يدعوك. أفلا تفهم الأدعية الصامته؟.. تقبل على البلغل تحط عليه ويسعدها غيلان.. ثم تجلس على حزمة أوتاد وهي مطرقة ساكنة ويجلس غيلان ويطرق أيضا ويبقى البلغل على رأسها واقفا مطرقا..¹ لقد سبق الحطّ عن البلغل بتأمل غيلان وميمونة للجبل فعندما التفت غيلان إلى البلغل أوّل حركته على أنّها تأمل للجبل أسوة بسيده وقد كان غيلان يتأمل الجبل. يبرّر الإدراك الحسيّ، ممثّلا في الصورة البصرية التي عكسها مشهد الحصان يرفع رأسه إلى الجبل في علاقتها بسياق القول، تأويل غيلان لما رأى بأنّ البلغل يتأمل أيضا. غير أنّ ميمونة قرعت المشهد في سياق آخر قوامه المزج بين قوانين الفيزياء وبين علاقة العبد بالخالق وحركة الصلاة والدّعاء.. فميمونة رأّت البلغل وقد أثقلت الأعباء ظهره وانقضت ظهره أو كادت فتقوس وارتفع الرأس في حركة آلية ثمّ استحضرت المحيط العرفاني الديني الذي يتوجه فيه العبد إلى ربّه طالبا الصفح والعون عندما تحيق به الشدائد وتثقل عليه أعباء الحياة ولا يجد غير الله موئلا يبحث عنده عن خلاص. من هنا كان تأويلها لمشهد البلغل مغايرا لتأويل غيلان رغم انطلاقتها من الإدراك الحسيّ نفسه ومن المحيط الفيزيائيّ عينه، وكان تحيّر السياق العرفاني الذي تأوّل فيه كلّ منها المشهد مختلفا فتوصّلا إلى تأويلين مختلفين تماما.

تملك المجموعة البشرية الواحدة ذكريات مختلفة خزّنت حوادث جماعية وأخرى ذاتية وتجارب حياتية متفرّدة جعلتها تكسب خصائص في معاملة الوضعيات التي تعترضها. وقد تشتتت المجموعة البشرية الواحدة في الفضاء الفيزيائيّ ذاته، لكنّها لا تشتتت في المحيط العرفاني الذي قد ينشأ بين الأفراد ولا يتكرّر. ويستدلّ الباحثان على تنوع المحيط العرفاني بجاسة البصر باعتبارها قدرة عرفانية تختلف حدتها من شخص إلى آخر، وهذه القدرة يسلمها صاحبها على المحيط البصري الذي يوجد فيه ليخزن من خلالها ما شاهد وينشئ تمثّلاته الخاصّة والتي تختلف ضرورة عن تمثّلات غيره. فما يراه فرد مخصوص هو التقاء القدرة الحسية والمحيط الفيزيائي اللذين يكوّنان المحيط العرفاني، وهذا التعريف للمحيط العرفاني يلتقي مع مقارنة تصوّرين لنشأة المعرفة أمثال "لايكوف" و"جاكوف" اللذين يريان أنّ الإنسان

1. محمود المسعدي، السدّ، ص 47.

يكتشف العالم حوله بالحواس التي يملكها ثم يرفع هذه المحسوسات إلى الذهن لينشئ منها تمثلات تصبح لديه حقائق يعيد من خلالها اختبار الكون من حوله.

اهتم الباحثان ("سبيرر" و"ولسن") بالقدرات الذهنية التصورية واعتبرا أنّ الأحداث الجليّة تكمن في العرفان التصوري (*cognition conceptuel*) وفي المحيط العرفاني (*environnement*) (*cognitif*) فأما حضورها في العرفان التصوري، فيتمّ عندما يتجلّى حدث ما، لشخص ما، في لحظة محدّدة، ويكون الشخص قادرا في تلك اللحظة على تمثّل ذلك الحدث ذهنيًا ويقبل تمثله على اعتباره صحيحا في الغالب.

وأما المحيط العرفاني لشخص ما فهو مجموع الحقائق الجليّة له. فالوضوح والجلاء هما أساس بناء التمثلات وإنشاء الدلالات وهما اللذان يؤسسان المحيط العرفاني باعتباره مجموعة من الحقائق الجليّة أو البيئية. فإذا كان المحيط الفيزيائي هو كلّ ما يدرك حسنا أمكننا اعتبار اللغة، بما هي رسوم أو أصوات، محيطا فيزيائيا يدرك حسيا ويقيم استدلالات في الذهن باعتبار المعارف المخزّنة في الذاكرة، كثرت أو قلت، وكلّما كان المحيط الفيزيائي أبين وكان إدراكه الحسي يسيرا كانت الاستدلالات أقدر على وضع حقائق جديدة تميّز بالوضوح والبيان.

يوكّد سبيرر وولسن، في سياق تحديدهما لكون الفرد العرفاني، على مبدأي الجلاء والوضوح باعتبارهما مصدرا لبناء التمثلات وإنشاء الاستدلالات عند الفرد. وينتج كون الفرد العرفاني، الذي هو مجموع ما يمكن إدراكه حسيا أو يستدلّ عليه ومجموع الأحداث التي تبدو جليّة ظاهرة، عن التقاء القدرات العرفانيّة بالمحيط الفيزيائي، وما تجب الإشارة إليه أنّ المحيط العرفاني لا يتوقّف فقط على المعارف التي تحصل للفرد من التقاء محيطه الفيزيائي بقدراته العرفانية وإنّما تشمل قدرة الذهن وما يحدثه التقاء تلك القدرة الذهنيّة والمحيط الفيزيائي من معرفة جديدة. لذلك يعتبر الباحثان أنّ المعلومة القديمة هي مكوّن من مكوّنات القدرات الذهنيّة وهو ما يجعلنا نستنتج أنّ مجمل ما يخزّن في الذاكرة من معارف ومعلومات هي مكوّنات من القدرات الذهنيّة التي تتفاعل مع المحيط الخارجي ليؤسّسا معا محيط الفرد العرفاني. وهو محيط متغيّر باعتباره خاضعا كلّ مرّة لما يستجدّ على المحيط الفيزيائي من تغيّر وعلى ما يطرأ من تحولات إثر كلّ تفاعل للمعلومة القديمة وما يمكن أن يكتسب حديثا.

يوقّر المحيط العرفاني، من بين ما يوقّره، مؤشّرات تناسب والإدراك الحسي الخاطي الذي يصدر عنه وهذا يؤدّي ضرورة إلى فرضيات خاطئة ولكنها صحيحة في بنائها العرفاني لأنها تتوقّف على

الروابط الموضوعية من لقاء بين محيط فيزيائي وقدرات حسية إدراكية، هذا في مستوى سحب مفهوم الوضوح على الفرضيات؛ إذ تكتسب الفرضية وضوحها من المؤشرات التي يوقرها المحيط العرفاني والتي تحقق حدًا من الانسجام بين ما هو فيزيائي وما هو تمثلات إدراكية حسية وقد تكون هذه الفرضيات صحيحة أو خاطئة ولكنها منسجمة في الحالين. فالانسجام لا يتعلق بالصحة أو الخطأ بقدر ما يتعلق بالتناسب داخل البناء العرفاني والذي هو التقاء بين المحيط الفيزيائي والقدرات العرفانية والتي تمثل المعلومة اللغوية إحدى مكوناتها.

أما مستوى درجة الوضوح، فيؤكد الكاتبان درجة الاختلاف في مستوى الوضوح وبأخذان مثال المبصرات ذلك أننا في محيط بصري ما يمكن أن نرى أشياء متعددة لكنها تختلف في مستوى درجة وضوحها البصري اعتبارًا للزاوية التي ننظر منها. فبعض المبصرات "أنور" للعين من أخرى، ويسحب "سبيربر" و"ولسن" تصوّر الوضوح هذا على الفرضيات، فكلّ فرضية يستطيع الإنسان أن يبنيا ويقبلها باعتبارها حقيقة أو احتمال حقيقة، هي فرضية واضحة، غير أنّ الفرضيات التي لها أوفر حظًا للتقبل هي الفرضية الأشدّ جلاء، ويعود جلاء الفرضية، أساسًا إلى تأثير المحيط الفيزيائي والقدرات العرفانية المشتركين. ولا يمنع هذا الجلاء من القول إنّ خاصية الوضوح أقلّ قيمة في الحقيقة من خاصية المعلومة المعروفة أو المفترضة. وينتهي إلى أنّ معرفة أيّ أمر يستلزم تمثله ذهنيًا أولًا وهذا التمثل على ضربين، تمثّل متحقّق وتمثّل قابل للتحقق بناء على تمثّل سابق يقولان: "لا يملك الفرد المعرفة الممتلئة في العقل فقط، وإنّما أيضًا المعرفة القابلة للاستنتاج من المعرفة التي يمتثلها"¹.

من هنا يمكن لبعض المعلومات أن تكون واضحة دون أن تكون في أصلها جزءًا من معارفنا، وليس ذلك إلاّ لأنّ بعض الأشياء الفاسدة يمكن أن تكون واضحة. ولكن، هل يمكن لفرضية أن تكون واضحة دون أن يكون لها تمثّل ذهنيّ؟

يرى الباحثان أنّ هذا الأمر ممكن باعتبار أنّ الفرضيات تختلف عن المعرفة؛ إذ ليس من الضروري أن تكون الفرضيات صادقة حتى يستنتج منها الفرد فرضيات واضحة.

وكما هو شأن المعرفة، لا ينشئ الفرد الفرضيات الممتلئة في ذهنه فقط، وإنّما أيضًا تلك الفرضيات التي يمكن أن تستنتج من الفرضيات الممتلئة؛ أي تلك الفرضيات المستلزمة من الفرضيات الأولى.

¹. D, Sperber et D, Wilson, (2004), p67.

ويعنينا هنا تنزيل الظاهرة اللغوية في هذا البناء العرفاني باعتبارها مؤشرات وفرضيات تقصد إلى تغيير محيط الآخر العرفاني، ويعنينا أن نزل الخطاب الحجاجي ضمن هذا البناء العرفاني، باعتباره إقناعا يستجد بعدد من الفرضيات (الحجج) ليغيّر فضاء الآخر العرفاني.

يؤكد الكاتبان تشارك أطراف الخطاب / الحوار المحيط الفيزيائي نفسه والحقل البصري نفسه، وهو تشارك ضروري ومبدئي لقيام عملية التواصل، غير أنّ هذا الالتقاء بين المتخاطبين لا يعني ضرورة أنّهما يتشاطران الرؤية ذاتها. فالقدرة البصرية تختلف من شخص إلى آخر، لذلك، لا يمكن لهما أن يتشاركا الحقل البصري في كليته في حين يمكن لهما أن يتشاركا حقلًا بصريًا جزئيًا. وهو ما يعني أنّهما قد لا يدركان نفس الظواهر رغم تواجدهما في الفضاء المكاني نفسه، ورغم امتلاكهما القدرة على رؤية الظواهر نفسها. وهنا يجب تمييز ما هو حادث فعلاً مما يمكن أن يحدث، فما هو حادث أو متحقق على أرض الواقع يختلف بالضرورة من شخص إلى آخر نتيجة الاختلاف في الإحاطة بالمحيط الفيزيائي ونتيجة الاختلاف في التفاعل بين هذا المحيط والقدرات العرفانية لكل فرد. غير أنّ هذا لا يعني أنّه لا يمكن إدراك التمثلات نفسها من حيث إمكان القيام بالفعل. ونأخذ المثال التالي من مسرحية السدّ للمسعدي لتبيين الفرق بين الإمكان والمتحقق في مستوى الحقل الفيزيائي والتمثلات الذهنية.

"على منحدر جبل أخشب غليظ حزيز، نباته كالإبر وأرضه ظمأى وغباره كثير وسماؤه صفراء آخر عشيتي.

امرأة ورجل يصعدان في عقبة يجزان وراءهما بغلا، فتنتهي العقبة عند كهف، فيقفان ويوقفان البغل. هي: انظر الجبل.

هو: (يمسح عرقه عن جبينه ثم يرفع البصر ثم يقول)

قد نظرت الجبل.

هي: فما سمعت؟

هو: المنظورات لا تسمع. المنظورات ترى أو لا ترى.

هي: (ترفع بصرها وتنظر طويلاً ثم تقول)

فماذا رأيت؟

هو: إني أرى جبلاً.. فيم السؤال؟

هي: إنّه جبل وليس بجبل.

هو: إنه جبل وليس بجبل..! ما هذا المنطق المعكوس¹؟

اشترك غيلان وميمونة في هذا المقطع في الفضاء الفيزيائي نفسه، واشتركا في الحقل البصري نفسه.. غير أنّ تفاعل المنظور والقدرات العرفانية لكلّ منهما باعد بين ما رأياه، فقد وجدت ما يدركه بصرها قابلاً للسّماع.. في حين لم يجد في المنظورات غير ما يرى.. ويمكن أن نقول هنا إنّ المحيط البصري خاطب القدرة البصرية في غيلان وخاطب القدرة السّاعية في ميمونة. وفي تفاعل المحيط الفيزيائي مع قدرتين مختلفتين قدح لمشروعية التواصل بما هو سعي أحد الطرفين إلى التأثير في الآخر وحمله على مطابقة تماثلاته كلياً أو جزئياً. وذلك هو المقصد من كلّ تواصل بين طرفين. وقد نجح هذا المقصد مبدئياً عندما عاد الطرفان إلى الاشتراك في الفضاء الفيزيائي نفسه وقدحه في القدرة البصرية ذاتها. سألته عندها: فماذا رأيت؟ مستبدلة بذلك السؤال: ماذا سمعت؟

غير أنّ هذا التشارك في القدرة البصرية لن يؤدي ضرورة إلى تطابق في تمثّل ما يوجد رغم أنّ إمكان تحقّق الفعل قائم. ومن هنا جاء ردّه: "إني أرى جبلاً.." وكان ردّها: "إنّه جبل وليس بجبل". لقد بيّن هذا المثال أنّ الاشتراك في الفضاء الفيزيائي نفسه وتفاعل هذا الفضاء مع القدرة العرفانية لا يؤدي ضرورة إلى نتائج متطابقة. وإن كان من الوارد أن تكون هذه النتائج متطابقة.

ويمكن أن نلجأ إلى مثال آخر من المصدر نفسه يدعم ما ذهبنا إليه في المثال السابق: "يصلان إلى منعطف من منعطفات العقبة يشرفان منه على السدّ بمنقطع الوادي فيقف غيلان وتقف ميمونة.

غيلان: انظري

ميمونة: (تلقت إلى صفاة عظيمة على يمين العقبة، معلّقة في الهواء فتقصد إليها وتقول) هذه الصفاة كالسدّ معلّقة في الهواء تدعو إلى الجلوس، أحبّ أن أعرف هل يجد القائم على المعلّقات في الهواء دواراً، وهل تجد يا غيلان دواراً إذا قمت على سدّك المعلق في الهواء.

تذهب فتجلس على الصفاة، وتصرف وجهها إلى الأبعاد والسدّ تحتها وأعماق الوادي.

غيلان: (منكراً لتقول ميمونة)

السدّ راسخ في الأرض.

1. محمود المسعدي، السدّ، ص45.

ميمونة: السدّ معلق في الهواء.

غيلان: أنت مجنونة

ميمونة: كذلك تقول الجتة للجنية منهم ترى ما لا يرون: أنت مأنوسة.¹

يتشاطر غيلان وميمونة المكان والمشهد فإذا هو منعطف من منعطفات العقبة يشرف على السدّ. ويعتمدان القدرة العرفانية نفسها، القدرة البصرية؛ إذ ينظر غيلان ويطلب منها أن تفعل حيث يوجّه بصره، انظري، لكنّها لا يتشاركان المحصلة نفسها فقد رأى، هو، السدّ راسخاً في الأرض ورأته معلقاً في الهواء. وما يبرّر هذا الاختلاف هو قيام عملية التواصل بما هي سعي بين طرفين أو أكثر، إلى التأثير في الآخر وتغيير رؤاه وحمله على بناء تمثّلات تتطابق وبعض التمثّلات الحاصلة لديه. غير أنّ الشقّة تزداد بين الطرفين رغم إدراك كلّ منهما لمقاصد الآخر. فهل إنّ إدراك طرف ما لمقاصد الطرف الآخر كفيّل وحده بإنجاح عملية التواصل؟

إنّا إن تحدّثنا عن التواصل بما هو تجاوب بين طرفين وتفاعل، يمكن القول إنّ إدراك المقصد كفيّل بتحقيق التواصل، أمّا الحديث عن التواصل بما هو تغيير للمحيط العرفاني وحمل للطرف الآخر على تغيير مواقفه أو تعديلها أو تأكيدها؛ أي بما هو نجاح للعملية التواصلية فإنّ إدراك المقصد ليس شرطاً كافياً لتحقيق التواصل.

وقد يشترك غيلان وميمونة في المحيط العرفاني نفسه بما هو محيط فيزيائيّ وقدرة ذهنيّة لكنّها لا يتطابقان فعلاً في إدراكهما لهذا المحيط، ولا يعبران عن الفرضيات نفسها، وقد رأيا الأطياف وسمعا ما قالت واستنتجا تبعاً لذلك مواقف تعبر عن تأثير الكون الفيزيائي المشترك بينهما في القدرة الذهنية لكلّ منهما لينتبيا إلى:

- غيلان: هذه الأطياف لطيفة. إنّي لأجد ريح عود وندّ. لعلمهم يتطهرون بالعود لئلاّ يقربوا الماء.
ميمونة: لا يا غيلان. إنهم يتطهرون بالنور. بالشمس. بالقيظ. النار.
غيلان: لا أرى المغتسل بالنار طاهراً.

ميمونة: هي الألفاظ تعرّك. إنهم لا يغتسلون بل يتطهرون.
غيلان: المحترق غير المتطهر. إنّي أراهم فخماً.

1. المصدر نفسه، ص103.

- ميمونة: ليس أظهر ممن احترق فصقته النار.

فإذا اعتبرنا اللغة بما توفره من ألفاظ وفرضيات محيطا فيزيائيا يقدم القدرة الذهنية للفرد بما توفره من مخزونات ومعارف لينتج المحيط العرفاني، فإن الانطلاق من المحيط الفيزيائي نفسه لن يؤدي ضرورة إلى التأويل نفسه. فـ"غيلان" الذي يجد ربح عود وندد بعيد الأمر إلى التطهر بالعود في حين تعتبر "ميمونة" أن التطهر لا يكون بالعود وإنما يكون بالتور، بالقبض، بالتار. وبحث "غيلان" في قدراته الذهنية عن تأويل وتصوّر للطهارة ليحده في الاغتسال ويجده يبين تصوّره للتطهر بالتار بما هو احتراق. غير أن "ميمونة" تختلف عنه في المحيط العرفاني الذي تصدر عنه والذي يرى أن التطهر بالتار بما هو احتراق هو أرقى درجات التطهر، فتقول: "ليس أظهر ممن احترق فصقته التار". وهي تعتبر التصوّر الذهني للتطهر غيره للاغتسال في الوقت الذي يخلط فيه "غيلان" بين المتصورين، المتصور الذهني للاغتسال والمتصور الذهني للتطهر.

وتجلى في المحيط العرفاني المشترك هوية الأطراف التي تتناول ذلك المحيط؛ أي أن كلّ فرضية جلية هي بالضرورة جلية للطرفين. اعتمد الباحثان مثال "ماري" و"بيار" اللذين يتقاسمان فضاء الغرفة ثم رنّ جرس الهاتف، فمن الجليّ بالنسبة إلى "ماري" و"بيار" أن الهاتف يرنّ، ومن الجليّ لـ"بيار" و"ماري" أنه جليّ لهما أن الهاتف يرنّ، ومن الجليّ لـ"بيار" و"ماري" أنه جليّ لهما أنه جليّ أن الهاتف يرنّ.

إنّ نجاح عملية التواصل تتطلب أن يكون المتكلم على دراية بالمحيط العرفاني للآخر ليطرق فرضيات موجودة ضمن ذلك المحيط العرفاني ويبنى عليها تواصله، يقولان: لتتواصل، يجب على "ماري" أن تكون لها بعض المعرفة بالمحيط العرفاني لـ"بيار"، فنجاح تواصلها من نتائج توسيع المحيط العرفاني المشترك بينها¹. وهنا نتحدث عن معرفة المحيط العرفاني المشترك من وجهة مغايرة لمفهوم "غرايس" للمعرفة المشتركة والتي هي عنده مجموعة من التواضعات التي اتفقت المجموعة على اعتبارها نافذة الفعل. وإتّما تكمن أهمية إدراك محيط الآخر العرفاني في توجّه المحاور إلى اختيار الفرضيات الأشدّ تأثيرا في الآخر حتّى ينجح في تغيير تمثلاته أو تعديلها أو ترسيخها. فإذا جهل المحاور البنية الفكرية للطرف المقابل عجز عن التواصل معه وفق مفهوم التواصل كما طرحه "سبيربر" و"ولسن" والذي لا يكمن فقط في إيجاد

1. D, Sperber et D, Wilson, (2004), p73.

أرضية ملائمة للحوار وفهم المقاصد. فالفهم في ذاته لا قيمة له إذا لم يؤدّ إلى تغيير في المتصور الذهني وإلى إنشاء معرفة جديدة.

إنّ التواصل الذي نبحث فيه هو التواصل الناجح إن شئنا الاصطلاح، فلا يكون إدراك القصد غاية في ذاته وإنما هو أداة للتأثير وتغيير التمثلات ومتى قصر التواصل عن تغيير تمثلات الآخر كان التواصل فاشلا. وعليه نقيس الخطاب الحجاجي الذي يسعى إلى التأثير وتعديل التمثلات ومتى حاد عن ذلك وقعد، كان حجاجا فاشلا.

تحمل مفاهيم المحيط العرفاني والبيان، والبيان المشترك بعدا نفسيا لكنها لا تحدّد وحدها التمثلي العرفاني المعتمد في عملية التواصل.. ذلك أنّ المحيط العرفاني ليس مجموعة من الفرضيات التي ينتجها الإنسان ويقبلها باعتبارها صادقة.

يقول دان سبيرير ودريدر ولسن: "نعتقد أننا حين نتواصل، إنّما نقصد أن نغيّر المحيط العرفاني للمتلقّي كما نطمح أن نغيّر تمثيلات تفكيره"¹. وهنا أيضا نتساءل، هل إنّ توقّر القصد التواصلية وشروط التواصل كفيلة وحدها بتحقيق هذا التواصل؟، وماذا نقول في وضعية يتعمّد السامع فيها أن يتهرّب ويدّعي أنّه لا يفهم في الوقت الذي يكون فيه الآخر على وعي أنّه لا يريد أن يعترف بالفهم، وإنما يريد تغيير الموضوع؟ هل حقق السامع الذي أجبر المتكلم على تغيير الموضوع التواصل فنجحت عملية التواصل التي لم تراع مقصد المتكلم وإنّما راعت مقاصد السامع؟

يؤكد الكاتبان في هذا الموضوع أنّ عملية التواصل قد نجحت. ونرى أنّ عملية التواصل قد نجحت ولكن بطريقتين مختلفتين، الأولى تهّم السامع/ القارئ الذي أدرك مقصد المتكلم، والمقصد هو أسّ التواصل، ثمّ استجاب بالعدول عن الموضوع الأول دون رابط وفي ذلك رفض للتواصل في ذاك الموضوع وإبلاغ الطرف الآخر بذلك القصد، وهو المستوى الثاني من التواصل حيث ينجح المتلقّي إلى تغيير مسار الفرضيات إلى مواضيع جديدة، فمن حيث القصد التواصلية، نجح كلّ في إبلاغ مقاصده للآخر وتوجيه الخطاب الوجهة التي يرتئها، أما إذا اعتبرنا التواصل تغييرا للمتمثلات الذهنية فإنّه يمكننا القول بفسل التواصل من هذه الوجهة. وهو ما يجعلنا نؤكد أنّ إدراك المقاصد لا يؤدّي ضرورة إلى نجاح التواصل.

1. Ibid, p76.

خلص الباحثان إلى أنّ مبدأ الإفادة هو الذي يقود فهم المتلقي وعرفانه، فيكفي أن ندرك المحيط العرفاني للآخر حتى ندرك أيّ الفرضيات نحتاج للتأثير فيه وتغيير تمثلاته لتوافق تمثلاتنا. ولقد استثار الجاحظ¹ على السبيل المثال، سخرية الخليفة حين ذكر له نماذج من غزل الخباز وغزل سائس الحيل وغزل القراش وهم الذين استندوا إلى كونهم العرفاني الضيق ولم يمنحوا القول ما يستحق من متطلبات استقرت عليها ذائقة العرب في الغزل، فلم يختاروا السبيل الصحيحة لإنتاج القول وهو ما جعلهم سخرية المتلقين، وما يلفت الانتباه في هذا المثال الذي يذكره الجاحظ في "رسالة القواد" أنه عمد إلى إثارة سخرية الخليفة من هذه النماذج التي لا تعلم كيف تؤثر في متقبلها ولا تراعي محيطه العرفاني، وغايته في ذلك أن يحمل الخليفة مؤدب صباه على أن يأخذ في تعليم ابنه من كلّ شيء بطرف حتى يختار القول المناسب في مقام المتلقين المناسب، ومثلت معرفة الجاحظ بالمحيط العرفاني للخليفة مدخلا لاختيار الفرضيات المناسبة لتعديل رأيه والتأثير فيه وهو ما تحقق للجاحظ حين نجح في تغيير تعليمات الخليفة للمؤدب آخر الرسالة فالجاحظ يخاطب متلقيا باعتبار ما ترسخ في ذاكرته وذائقته فيستثيرها إما سخرية أو تثمينا، وتكون تلك السخرية، أو ذاك التثمين، أداة لتحقيق القصد. فالغاية من الخطاب هي الإقناع وما السخرية إلا وسيلة من وسائل الإقناع.

ليس التواصل عملا عفويا وإنما هو فعل يخضع إلى تحديد محيط المتقبل العرفاني وإلى التعرف على نوازه وتخيّر ما يمكن أن يؤثر فيه، فهو إنجاز لفعل يستهدف الآخر ويتحدد نجاحه بقدرته على تغيير محيطه العرفاني. فإذا نظرنا إلى الحجاج من هذه الجهة التواصلية، في ظلّ نظرية الإفادة، تبينا أنه سيرورات وتخيّر لفرضيات تراعي محيط الآخر العرفاني بما هو معارف ومحيط بصري ونوازع نفسية، وهذه العناصر هي التي تحقق انسجام القول وتؤمن فهم المتلقي. ولا يمكن الحديث عن نجاح عملية الحجاج وانسجامها إلا في ظلّ نجاح الفعل الحجاجي في تغيير محيط الآخر العرفاني. فقد يكون النشاط الحجاجي منسجما، في مستوى البناء، ومنسجما مفيدا عند منتج الخطاب ولكنه غير ناجح وغير مفيد ما لم توجد استجابة تصوّريّة، وهو غير ناجح وغير مفيد ما لم يوجد تغيير في تمثلات الآخر للكون. وهو لهذه الأسباب عمل لغويّ تظهر نتائجه في ما يترتب عن القول من سلوك.

1. كان ذلك في رسالة القواد حين طلب من أصحاب مهن مختلفة أن يلقوا أبياتا في واقعة خرجوا إليها مع الخليفة ثم في الغزل.

3.2.3.2.3 السياق الاستدلالي:

استند "دان سبرير" و"دريدر ولسن" في مقارنة المبحث الاستدلالي على ما بلغه علم النفس العرفاني من نتائج في مقارنة عملية الفهم، وخلصا إلى وجود سيوريتين في الاستدلال على المعلومة أثناء عملية الفهم. هما السيورة الموضوعية (*locaux*) والسيورة الكليّة أو الإجمالية (*globaux*)، وهو ما يوافق في علم النفس، التمثي الحسي الإداراكي (*les processus perceptionnels*) والتمثي العرفاني المركزي. (*processus cognitifs centrales*).

وتعتمد السيورة الموضوعية منوالا سننيا يفك الرموز المختصة، وتدرج ضمنها العلامات اللسانية وفضلا عن الاستدلال البرهاني؛ أي أنّ الذهن يلجأ لفهم القول إلى قائمة من المفردات ثابتة دون إدراج القول في سياقه، فالسيورة الموضوعية هي ذاك المنهج الذي تعبّر فيه كلّ كلمة عن المعنى الذي يقترحه عليها المعجم في معزل عن السياق الذي تنتزل فيه، وهو يقتصر على مجال محدّد وضيق شأن الإدراك الحسي - السمعي أو المنطق الاستنتاجي الذي يعتمد مسلمات في الانطلاق. لكن، أليس في هذا النظر إلى السيورة الموضوعية اقتصارا على المفردات والفرضيات الاستنتاجية دون اهتمام حقيقيّ بالبنى التركيبية في الجمل المختزلة مثلا (الدعاء والنداء والتحضيض والالتماس...) والتي تمثل في ذاتها بعدا تداوليا ضخما، كما أنّ علامات الإعراب بما هي حاملة لمعنى يمكن لها أن تستدعي السياق ولا تعزل عنه.. بل يمكن أن تعدّ هي في ذاتها سياقاً خاصاً..؟

ويمكن أن ننظر في هذين المثالين لتبليّن دور علامات الإعراب في إنتاج المعنى، وتبليّن علاقتها بالسياق الخارجي:

(- ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات..)

- مات الرّجل..

وردت علامة الإعراب (الضمّة) في المثال الأوّل متعلّقة بـ"الله" التي وردت في محلّ المفعول باعتبار ما درج عليه ترتيب التركيب في الجملة الفعلية. فكان من المتوقع، استنادا على المواضع اللغوية، أن يحمل (إبراهيم) علامة الرفع لوروده بعد الفعل لكنّه حمل الفتحة الدالة على المفعولية عوضا عن ذلك. فشكل الجملة الفعلية يتكوّن عادة من:

محلّ المفعول (الفتحة)	محلّ الفاعل	محلّ الفعل
-----------------------	-------------	------------

هذا الشكل النمطي للجملة الفعلية تغيّر بتغيّر علامة الإعراب، فحمل دلالات تخالف دلالات الشكل التمثط فحملت الجملة تبعاً لذلك الشكل التالي:

محلّ الفاعل	محلّ المفعول (الفضة)	محلّ الفعل
-------------	----------------------	------------

ويعود التحوّل في الدلالة إلى المعنى الذي تحمله علامات الإعراب في ذاتها ما يجعلنا نؤكد أنّ علامات الإعراب تحمل بعداً تداولياً يحدّد دلالة الجملة فلا يقصر علامات الإعراب، وهي التي تنتهي إلى المدركات الحسية، في التمثي الموضوعي لتأويل المقووظ.

ويتعلّق اختيار مواضع علامات الإعراب في هذا المثال بما تواضعت عليه المعرفة بالكون الخارجي لمستعملي اللغة والذي يعتبر أنّ الله بما هو مالك الملك وخالق الكون وبما له من صفات لا يمكن أن يكون مفعولاً به؛ أي لا يمكن أن يكون مبتل.

وأما المثال الثاني، مات الرجل، فتتقرن علامة الرّف بالفاعل الوارد في مستوى البنية النموذجية للجملة الفعلية بعد الفعل، لكنّه في مستوى المعنى، ليس له من الفاعلية غير الموضوع باعتبار أنّ الفعل قد وقع عليه. وهو ما يعني أنّ علامة الإعراب ليست محدّدة لدلالة الجملة في الحالات جميعها.

ويعنى التمثي الإجمالي أنّه يمكن الالتجاء إلى أية معلومة في الذاكرة المفهومية تؤدّي الغرض المقصود بغض النظر عن مطابقتها لما يوفّره المعجم. وقد طبع التحيز للتمثي الإجمالي الفهم الاستدلالي بتلك السيورة غير البرهانية (*inference non demonstratif*) الذي توظّف كلّ المعلومات المخزّنة في الذاكرة المفهومية. وهو عين ما يعتمد التمثي المركزي الذي يهتم بالاستدلال غير المختص وهو استدلال غير برهاني يستنجد بما خزّنته الذاكرة من مناويل عرفانية فهو برهان لا يتقيد بصرامة المنهج القائم على مسلّمات ونتائج وإثبات يستفيد مما تتيحه الذاكرة من معارف وما يفرضه المقام في انتقاء تلك المعارف. والمثل على ذلك الجملة: "قريباً يحلّ موسم الأمطار"، يفهم الفلاح الجملة على أنّها بداية لموسم فلاحي ناجح، ويفهمها مواطن مدينة تونس أنّها بداية المتاعب في الطرقات الموحلة، ويفهمها المتشرّد أنّها دعوة للبحث عن مأوى ولا تثير في ذهن الزائر لفترة قصيرة أية دلالات لأنّها لا تعنيه.

ويسعى سبيرير وولسن إلى وضع منوال للقدرات الاستدلالية المتعلقة بالفهم وينطلقان في ذلك من فرضيتين، أولاهما أنّ سيرورات الفهم الاستدلالية هي سيرورات غير برهانية باعتبار أنّ عملية التواصل يمكن أن تنشل حتى في أكثر الوضعيات مناسبة للتجّاح، وثانيهما أنّ المتلقي لا يستطيع فكّ الترميز ولا استنتاج مقاصد المتكلمّ الإبلاغية، وأقصى ما يستطيعه هو بناء فرضيات انطلاقاً من مؤشّرات مستمدّة من سلوك المتكلمّ الإشاري (*ostensif*).

ولئن درس الباحثان هذه السيرورة في فهم الخطاب متعلّقة بالخطاب الشفوي فإنّنا نعتقد أنّها تمثيلات تصحّ أيضاً في الخطاب المكتوب، فالسيرورة الاستدلالية غير البرهانية تحضر في الخطاب المكتوب كما تحضر في الخطاب الشفوي، وفشل التواصل في ظلّ توفّر شروط نجاحه فرضية ممكنة التحقق في الخطاب الشفوي كما هو الحال في الخطاب المكتوب. إضافة إلى أنّ الفرضيات التي يبينها المتقبل وقد استمدّها من سلوك المتكلمّ الإشاري يمكن أيضاً أن تبنى بدلالة اللفظ السياقية. أولاً تكون المؤشّرات اللغوية نفسها بما تحمله من قيم دلالية ضامنة لنجاح عملية التواصل بما هي تغيير لتمثلات أحد الأطراف سواء في ذلك أكان الخطاب شفويّاً أم مكتوباً؟

وسننظر في المثالين التاليين لتبين دور الاستدلال غير البرهاني في نجاح عملية التواصل أو فشلها، وهما مثالان من رسالة في "صناعات القواد" للجاحظ و"السّد" للمسعدي:

"خذ يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كلّ الأدب، فإنك إن أفردتهم بشيء واحد ثمّ سألوا عن غيره لم يحسنوه وذلك أي لقيت حراماً حين قدم أمير المؤمنين من بلاد الروم فسألته عن الحرب كيف كانت هناك؟ فقال: لقيناهم في مقدار صحن الاضطبل فما كان بقدر ما يحسّ الرجل دابته حتى تركناهم في أضيق من ممرغة وقتلناهم فجعلناهم كأنهم أنابير سرجين فلو طرحت روثه ما سقطت إلاّ على ذنب دابة.. وسألته -أطال الله بقاءك- محمد بن داود الطوسي من مثل ذلك- وكان فرّاشاً- فقال: لقيناهم في مقدار صحن بساط، فما كان إلاّ بقدر ما يفرش الرجل بيتاً حتى تركناهم في أضيق من منصة فقتلناهم فلو سقطت مخدة ما وقعت إلاّ على رأس رجل.."

قال: فضحك المعتصم حتى استلقى ثمّ دعا مؤدّب ولده فأمره أن يأخذهم بتعليم جميع العلوم¹.

1. الجاحظ، رسالة في صناعات القواد، رسائل الجاحظ، الجزء الأول، تحقيق عبد السلام هارون، صص 381-393.

فبين مقصد التواصل، المصرح به، " خذ يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كلّ الأدب.." والنتيجة التي انتهى إليها الخطاب " ... دعا مؤدّب ولده فأمره أن يأخذهم بتعليم جميع العلوم.." نجاح للتواصل باعتبار مفهوم التواصل القائم على تغيير تمثلات أحد طرفي عملية التواصل بما يتناسب ومقاصد القول. وقد تمّ الوصول إلى هذا النجاح بإيراد أخبار، اكتفينا بذكر اثنين منها تمثل وصف "سائس خيل" و"فراش" لحرب شاركا فيها. فوصفها الأول باعتبار المرجعيات المعرفية التي خزنها في ذهنه التي لا يعرف غيرها. فحضرت مؤشرات لغوية تتعلق بالاصطبل وما يوجد في الاصطبل ووظفت في وصف ساحة الحرب. كما استنجد الفراش بمخزونه اللغوي والمعرفي ليصف الحرب فكانت البسط والبيوت والمنصة والمخدة أدوات معجمية لوصف المعركة. ولم تظهر في هذين الخبرين استدلالات منطقيّة ومقدمات كبرى وصغرى. وإنما هي استدلالات غير برهانية جعلت الخليفة يضع فرضيات من قبيل:

- للحرب معجم خاص يعبر عنها.
 - الفراش والسائس لا يعرفان هذا المعجم بحكم أنّ معارفهما مقتصرة على مجال واحد من المعرفة.
 - إذا اكتفيت بتعليم أولادي مجالا واحدا عجزوا عن التعبير عن بقية المجالات وأصبحوا سخريّة كما هو حال السائس والفراش في هذا الموضوع.
 - ضرورة أن يأخذ أبناء الخليفة في تعلم كلّ المعارف حتى يحسنوا التواصل مع بقية فئات المجتمع (الرعيّة).
- كلّ هذه الفرضيات غير البرهانية التي قدحتها الأخبار في الذهن أدّت إلى نجاح عملية التواصل وحملت الخليفة على تغيير رأيه.

أمّا المثال الثاني فهو من "سدّ ميمونة وغيلان" فقد دأب غيلان منذ البدء يدعو ميمونة أن تؤمن بسدّه وبدعوها، ودأبت تدعوه أن يؤمن بالواقع الصّلب وبالمرمر وانتهى الأمر بهما إلى فشل كليّ في التواصل فارتفع هو مع ميارى يبحثان عن النور وراء سراج يتراءى لهما وحدهما وأدركت هي الأرض الواقع الحقيقيّة فركضت تنحدر تبحث عن ثبات وسط الزلزال الذي يحيطها.

وتتمثل الأنظمة الطرفية، بما هي مدخلات، الدرجة الأولى التي لا بدّ منها للمرور إلى الاستدلال غير البرهاني ذلك أنّه في معزل عن الفهم الحرفي للاستدلال في بعده الشكلي لا يمكن أن نمرّ إلى المرحلة الثانية التي هي بناء على ما تقدّم. يقول الكاتبان: "إنّ العقل مجموعة من الأنظمة المدخلات المختصة لكلّ منها مناهجها الخاصّة في بناء التمثلات ومعالجتها، فمن جهة تجد أنظمة المدخلات التي تعالج المعلومات الإدراكية الحسية مثل المعلومات البصرية والسمعية وأيضا المعلومات اللسانية، ومن ناحية ثانية هناك

الأنظمة المركزية التي تؤلّف بين المعلومات التي تنتجها أنظمة المدخلات وبين المعلومة الموجودة سلفا في الذاكرة والتي تقيم أنشطة استدلالية متعدّدة¹.

يعتمد "سبيربر" و"ولسن" تمثيلات في معالجة المعلومة هي امتداد لمقاربة "فودور" للعقل؛ إذ يعتبر العقل مجموعة من الأنظمة الخاصّة ولكلّ منها مناهج بنائها ومناهج معالجتها لتمثّلاتها. لذلك يفترض الباحثان أنّ كلّ نظام مداري/ طرفي يعالج فقط المعلومات الماثلة في الشكل الخاص به وأنّ كلّ نظام مداري يشغل وفق منهجه الخاصّ في بناء التمثّلات ومعالجتها.

وهما، لذلك، يصنّفان العلامات اللسانية ضمن الأنظمة الطرفية ويصنّفان الاستدلالات ضمن الأنظمة المركزية.

ويجعلنا اهتمامنا بالخطاب نعني بالظاهرة اللسانية بما هي نظام مداري يعالج المعلومات الإدراكية الحسية، من ناحية ثمّ ننظر في كميّة تفاعل هذه المدخلات اللسانية مع المعلومات الموجودة سلفا في الذاكرة بما يقدر استدلالات تحقّق الفهم في ذهن المتلقّي من ناحية ثانية، هذا الفهم الذي يجب أن يكون فاعلا ومغيرا لمعتقدات الآخر؛ أي منتجا لعمل حجاجي.

يشمل النظام الطرفي مكونات الخطاب الحجاجي بما هي مؤشرات حجاجية وفرضيات، ويشمل النظام المركزي سائر المعارف المخزّنة في الذاكرة طويلة المدى كما يشمل العمليات الاستدلالية التي تمكّن من تأويل المدخلات التي يستقبلها النظام الطرفي.

من هنا أمكن لنا ربط انسجام الخطاب بالعلاقة بين المؤشرات اللغوية والفرضيات التي تطرق النظام الطرفي للدماغ وبين سائر المعارف المخزّنة في الذاكرة طويلة المدى فتمتّ تحقيق الفهم انسجم القول، ومتى جانب الإفادة كان فاقدا للانسجام. ومتى انسجم القول مع ما خزّن من معارف في النظام المركزي للدماغ أفاد ومتى لم ينسجم لم يفد.

4.2.3.2.3. المعالجة الاستنتاجية للمعلومة:

يفترض الباحثان أنّ هذه القواعد الاستنتاجية تعمل بصفة عفوية في المعالجة الاستنتاجية للمعلومة، ويستندان في ذلك على مجموعة من المعطيات لعلّ أهمّها أنّ النظام الاستنتاجي يمكن من اقتصاد هام في الذاكرة، فالاستنتاجات المنطقية لكلّ مجموعة من الفرضيات يمكن أن تبنى استنتاجات ليس

1. D, Sperber et D, Wilson, (2004), p114.

من الضروري أن يُحتفظ بها في الذاكرة؛ أي أن النتيجة التي توصل إليها انطلاقاً من مجموعة من القواعد الاستنتاجية يجوز ألا يُحتفظ بها في الذاكرة لأن آلية التوصل إليها من جديد متى احتجناها موجودة، فالأصل في الأشياء، آلية العمل لا الدلالة في ذاتها التي تتغير بتغير المعطيات في حين تحافظ آلية العمل على وجودها الضروري، فهذه الآليات أو القواعد، بما توفره من قدرة على بناء معرفة استناداً على فرضيات ما، فاعلة في تمثّل الإنسان للعوامل المختلفة التي تحيطه. من هنا نتبين أن القواعد الاستنتاجية بما هي آليات وتركيبات تحدّد معرفتنا بالعالم، وهي التي تحكم على النتيجة وعلى مقبولية النتيجة بالانسجام و"الصحة" أو بعدمها، وبالتالي هي التي تحدّد الانسجام الداخلي للمقول. من هنا، ندرك أن قيام الخطاب على قواعد استنتاجية بما تطرحه من استتبعات منطقيّة هو مظهر من مظاهر انسجام الخطاب منطقيّاً. فالنظام الاستنتاجي، لا يوقر لمستعمله أداة قيس لحساب الانعكاسات الجديدة على تمثله الجديد للواقع، فقط، وإنما يضمن أيضاً صحّة كلّ نتيجة استنتجت من معطى صادق عند الانطلاق. وبالنسبة إلى كلّ كائن اجتماعي، يمثّل النظام الاستنتاجي وسيلة لاكتشاف عدم انسجام تمثلات العالم، وبالتالي يكشف عن أخطاء في تمثّل العوالم. يقول الباحثان "تعتبر الأنظمة الاستنتاجية، الأنظمة الاستدلالية الوحيدة المتطورة التي تمنح إمكانات مثل تلك الإمكانيات"¹ وعندما تأخذ مجموعة من الفرضيات موقعها في ذاكرة الفرد الاستنتاجية، تمرّ كل القواعد الاستنتاجية وقتها إلى مرحلة العمل.

ويجدر التمييز بين نمطين من القواعد الاستنتاجية وهما القواعد التحليلية (*analytiques règles*)، وتمثّلها قاعدة الحذف ب(و/et) والقواعد التآلفية (*règles synthétiques*)، وتمثّلها القاعدة التشارطية (*modus ponendo ponens*) ففي حين تأخذ القاعدة التحليلية فرضية وحيدة مدخلاً لها، تستند القاعدة التآلفية إلى أكثر من فرضية.

5.2.3.2.3. بين الممثلات والعلاقات الاستنتاجية

الممثلات هي وحدات نفسية ذات بعد منطقي، تخزن في الذاكرة في شكل عناوين تملأ وظائف مختلفة متكاملتين، فالتصور في المقام الأول، هو عنوان يمكن أن يُحتفظ بالمعلومات مختلفة الأنماط ويتوصل إليها.. وهو في مقام ثانٍ عنوان مكون ضمن شكل منطقي يمكن وجوده من القيام بتطبيق مجموعة من القواعد الاستنتاجية الخاصة.. وهذه الوظائف متكاملة بالضرورة، ذلك أنه إذا ظهر عنوان؛

1. Sperber and Wilson, (2004), p134.

أي متصوّر من التمثلات، في شكل منطقيّ، وقرّ معلومات مختلفة الأنماط تُخزّن تحت هذا العنوان، أمّا المعارف التي يمكن أن تطفو على الذاكرة فهي على ثلاثة أضرب، معلومات منطقيّة ومعلومات موسوعيّة ومعلومات معجمية. فأما المدخل المنطقي لتصور ما، فيشمل القواعد الاستنتاجية التي تعتمد في الأشكال المنطقيّة التي يكون المتصوّر عنصراً منها، وأمّا بالنسبة إلى المدخل الموسوعي فيجمع المعلومات عن المتصوّر في اتساعه وفي ما يؤثّر إليه؛ أي حول موضوع الأحداث أو الخصائص المتعلقة بالمتصوّر، أمّا بالنسبة إلى المدخل المعجمي فيتعلّق بالتعبير اللساني للمتصوّر؛ أي الكلمة أو المركّب الذي يعبر عن المتصوّر في اللغة، بهذا المعنى يكون العنوان التصوري نقطة وصل بين المعلومات المنطقيّة وبين المعلومات الموسوعيّة وبين المعلومات المعجميّة.

وتختلف المدخلات الموسوعيّة نمطيّاً من فرد إلى آخر ومن زمن إلى آخر، لذلك فنحن لا نتشاطر جميعنا المدخلات الموسوعيّة نفسها، هذه المدخلات التي تميّز بأنها منفتحة قابلة أن تسع معلومات جديدة في كلّ آن ولا يمكن أن ندعي أبداً اكتمال المدخل الموسوعي فلا يوجد محتوى أساسي أدنى في غياب السيطرة على المتصوّر، على خلاف ذلك فإنّ المدخلات المنطقيّة هي مدخلات محدودة ولا تختلف إلّا في حدود دنيا بين متكلم وآخر ويمكن للفرد أن يستبطن المدخل المنطقيّ المكتمل لمتصوّر ما، وإذا لم يفعل إلّا جزئياً فلن يتمكّن من السيطرة على المتصوّر.

وتختلف المداخل الموسوعيّة جوهريّاً عن المداخل المنطقيّة، فالمدخل الموسوعي يختلف من واحد إلى آخر ومن زمن إلى آخر ومعلوماتنا الموسوعيّة حول السّماء أو البحر أو العدل أو الظلم أو الرومان، تختلف من طرف إلى آخر وهي معرفة منفتحة أبداً على التعديل والإضافة. غير أنّ هذه المعلومات تحافظ على حدّ أدنى من النمطيّة تشاركها المجموعة البشريّة الواحدة وتكون ما يعرف في علم النفس العرفانية بالمناويل العرفانية المؤتملة حيث تنزع كلّ الفرضيات التي يقبها الأفراد حول الأشياء والأحداث التي تصادفهم بصفة منتظمة إلى خصائص نمطيّة. وترتكز البحوث العرفانية في علم النفس على التمييز بين التمثلات وبين العمليات الخاصّة بهذه التمثلات. وتمييزنا بين الفرضيات الموسوعيّة والقواعد الاستنتاجية ليس إلّا حالة من هذا التمييز العام.

3.3.2.3. السياق المقامي:

يميّز علماء النفس بين محتوى المعلومة والسياق الذي قيلت فيه، فالمعلومة الواحدة يمكن أن تحيل على معان مختلفة باختلاف مقام التلقّظ وحال المتخاطبين والمقصد من التلقّظ، فمحتوى فرضيّة ما

لا يكفي أن يثير متصورا ذهنيا أو أن يطرق فرضية موسوعية ويستعين بمعرفة نمطية مؤتملة، إنما قبل هذا وذلك وجبت مراعاة مقام القول وما يجوز في وضعيته تواصلية قد لا يكون ذا جدوى في وضعيته أخرى وقد لا تكون الفرضية الملائمة لاستثارة تمثلات المتقبل ودفعها نحو الإقناع بمقصد المتكلم. ويقول "سبيرير وولسن" في الغرض "تحدّد مداخل التمثلات المنطقية (المفاهيم) محتوى الفرضية"¹.

ويؤدّي مقام القول هذا إلى تغيير تمثلات المتقبل حول العالم وهو جوهر العمل الحجاجي، ومن هنا تتحدّد إفادة أيّ معلومة بقدرتها على تغيير تمثلات الفرد عن العالم وتحقيق مقصد التواصل. وتهدف مقاربة "سبيرير وولسن"، تبعا لذلك، إلى تحديد الفوارق بين الاستلزامات المنطقية والاستلزامات الدلالية، أو بعبارة أخرى بين الدلالات الجوهرية الكامنة في الفرضية وبين مأخذها العام أو دلالة المقصد (*Portée Générale*).

وتتأقّ الفرضيات التي يمكن أن توجد في الدّهن من أربعة مصادر مختلفة، الإدراك الحسي وفكّ الرّمز اللساني والذاكرة الموسوعية والسيرورة الاستنتاجية نفسها. وتتكوّن الفرضيات المتأتية من المداخل الموسوعية من معلومات قديمة في حين تتكوّن الفرضيات المتأتية من الإدراك أو من فكّ الرموز اللسانية أي من النظم الطرفية من معلومات جديدة. وهي معلومات تصبح قديمة ما إن تعالج. والمقصد من نظرية الإفادة عند الباحثين هو التّطرّف في أثر المعلومات الجديدة المنبثقة عن المدخلات اللسانية في المعلومات القديمة المستخلصة من تمثّل العالم الموجود، فيتمّان بمفعول الاستنتاجات حيث أنّ مجموع الأطروحات الأساسية يمكن أن تقسّم إلى مجموعتين (ب وس) حيث (ب) هي المعلومة الجديدة، و(س) هي المعلومة القديمة، فيقيان استنتاجا من اتحاد (ب وس) أي سياقية (ب) في السياق (س).. وتقود استنتاجية (ب وس) إلى استنتاجات جديدة لا تأخذ في الاعتبار (ب) وحدها أو (س) وحدها ويسمى ذلك "الاستباعات السياقية" أو الاستلزامات السياقية ل(ب) في (س). والاستلزامات السياقية هي تأليف للمعلومات الجديدة والقديمة وإنتاج مشترك تفاعلي بين هذه المعلومات.. ويمكن للمعلومة التفاعلية الجديدة أن تغيّر من تمثّلنا للعالم.. يقول المسعدي:

"هي: انظر الجبل

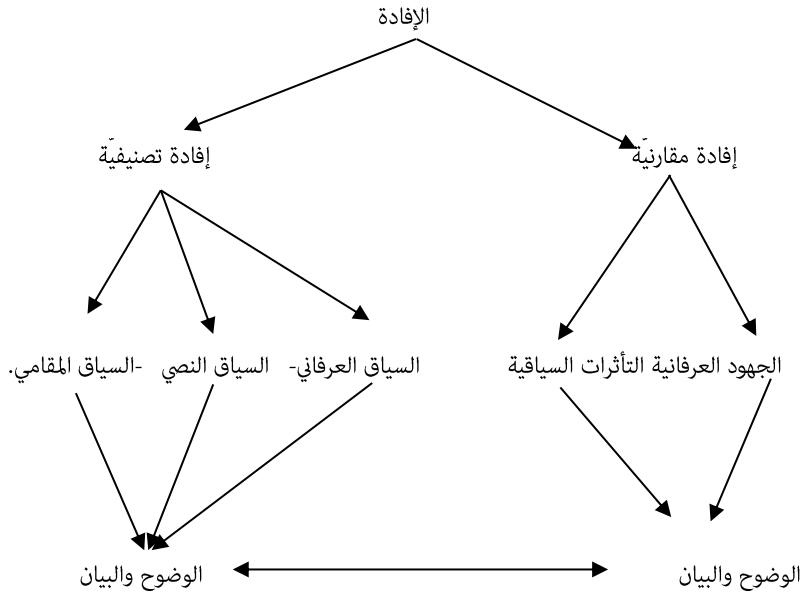
هو: قد نظرت الجبل

هي: فإذا سمعت؟

1. Spreber et Wilson, (2004), p160.

هو: المنظورات لا تسمع، المنظورات ترى أو لا ترى
هي: فإذا رأيت؟"

إنّ سؤال ميمونة يتمّ على أنّها تنطلق من فرضية مفادها أنّ المنظورات تسمع، غير أنّ ملاحظة غيلان الذي يصدر عن فرضية أنّ المنظورات ترى جعلتها تتغيّر من تمثّلها للواقع وذلك بضرب الفرضية الجديدة في الفرضية القديمة وإنتاج استنزاج سياقيّ تحلّى في سؤالها الأخير "فماذا ترى؟".
يمكننا بعد هذا النظر في مقارنة "سيرير وولسن" للإفادة أن نختزل النظرية في الرّسم التالي:



إنّ نظرية الإفادة عند "سيرير" و"ولسن" هي نظرية عرفانية تداولية في الوضوح والبيان، تشترط لتحقيقها مجموعة من المعايير نطلق عليها شروط الانسجام التداولي العرفاني وقد قرن الكاتبان في أكثر من موضع في مصنفها شرط الإفادة بمبدأ الانسجام. فلئن كانت الإفادة ما يتبدى للذهن واضحا من معرفة فإنّ الانسجام هو المعيار الذي يراعى عند إنتاج الدلالة المفيدة وهذا المعيار يظهر في التفرعات التي تكوّن طرفي الإفادة، المقارنة والتصنيفية وننتهي مع "فان ديك" إلى العلاقة المتبسة بين المفهومين. ولئن طابق "فان ديك" بينها فإننا نرى أنّ إحداها تحيل على الأخرى فلا يمكن أن تتحقق الإفادة في غياب الانسجام ولا يمكن أن نجد انسجاما دون أن يُتوجّح بإفادة ومعالجة ناجعة للقول.

يمكننا أن نختزل معايير الانسجام باعتبار ما تفصح عنه الإفادة، في ما يلي:

1- السّياق النّصي: - التعلقات التداولية والتركيبية باعتبار بعدها العرفانية (عمليات ذهنيّة)
- الأعمال اللّغوية

- الإحالات والضمّنات والاستلزامات السياقيّة النصيّة

2- السّياق العرفاني: - المداخل الموسوعيّة: - الذاكرة الموسوعيّة

- المعلومات الجديدة

- المحيط العرفاني: العلاقة بين - المحيط الفيزيائي

- القدرات الحسيّة الإدراكية

- العناوين تصوّرية

- الاستدلال: - البرهاني

- غير البرهاني

3- السّياق المقاميّ: - المقام النّصي

- المقام الخارجي

- الحال.

وتبدو مبادئ الانسجام هذه مختصة بكلّ أنماط النصوص ولا يقتصر حضورها على النصّ الحجاجي فحسب. فالسياقات النصيّة والعرفانيّة والمقاميّة هي سياقات عامّة لا يخلو منها خطاب. ولكننا نقول إنّ لكلّ نمط من أنماط الخطاب مظاهر يختصّ بها ضمن العام المشترك، وسنجد في مكونات السّياق النّصي ما يحضر في الخطاب الحجاجيّ ويغيب عن غيره، وقد يحضر في أكثر من خطاب ولكنه يأخذ في كلّ مرّة خصائص تناسب مع الخطاب الذي ترد فيه، فهي مظاهر سياقيّة تكتسب دلالتها من نمط خطابها. وكذا الشأن بالنسبة إلى السّياقين العرفانيّ والمقاميّ بما يتضمّناه من محيط عرفانيّ وعناوين تصوّرية واستدلالات وأحوال.

إنّ معايير الانسجام في الخطاب التواصلي الحجاجي، تعمل معاً لخدمة المقصد الحجاجي ضمن خطاب تواصليّ يتحدّد نجاحه بتحقيق العمل الحجاجي / المقصد الحجاجي. هذا المقصد الذي قد يرد معلناً أو يرد خفياً تدفع إليه الحجج / الفرضيات دون أن تصرّح به. ويكشف عنه العمل المنجّر عن الحجاج.

خاتمة

يستمدّ الخطاب الحجاجي انسجامه، باعتباره خطابا تواصليا، من أطراف الحجاج (التخاطب)؛ إذ يسعى كلّ طرف إلى التأثير في الآخر. وليست المعطيات التي تحقّق انسجام خطاب المتكلم بالضرورة هي ذاتها التي تحقّق انسجام الخطاب في ذهن المتلقّي. وقد يُنتج المتكلم خطابا يبدو له منسجما باعتباره نتاجا لسياقاته العرفانية والمقامية الخاصة فينتلقى بإبهام وغرابة منشؤها أنّ المتلقّي لا يشارك المتكلم السياقات المعرفية أو المقامية ذاتها. ولئن كان التواصل الشفوي يسعف أطراف الخطاب بتعديله متى تراءى لهم فشل التواصل والبحث عن تمثيلات جديدة تؤمّن عملية الفهم فإنّ الخطاب الحجاجي المكتوب ممدّد بالفشل في هذه الحال، وهذا الفشل لا يتعلّق بالخطاب الحجاجي داخل السياق النصّي أي بين متجادلين داخل البناء النصّي باعتبار أنّ الكاتب يسيّر الخطاب لينتهي إلى المقاصد التي وضعها، وقدرات الكاتب تظهر في وضع خاصيات عرفانية لأطراف الحجاج، حقيقتين كانوا أم وهميتين، والاستجابة إلى تلك الخاصيات في إنتاج خطابه أو خطابها، ومراعاة كلّ طرف من أطراف التواصل النصّي للخاصيات العرفانية للآخر، وإثما يهدّد الفشل علاقة الكاتب بمتلقّي خطابه. فبمعزل عن العلاقات داخل الخطاب النصّي، يتوجّه الكاتب بذلك الخطاب الحجاجي الذي يبدو للوهلة الأولى مفارقا للواقع إلى متلقّ، ويقصد إلى رسالة يريد تبليغها وتغيير تمثلات ذلك المتلقّي للعالم، وهذا المقصد الحجاجي الذي يبدو خفيا، يستوجب من الكاتب عند إنتاج خطابه أن يحدّد المتلقّي المستهدف بالقول ويمثّل كونه العرفاني لتسهيل مخاطبته بما يملك من معارف، كما أنّ المتلقّي مطالب بتمثّل الكون العرفاني للكاتب ليؤمن حدّا أدنى من الفهم، من هنا ننبين أنّ فهم الخطاب الحجاجي ونجاحه باعتباره فعلا تواصليا يستوجب بالضرورة مجهودا من منتج الخطاب ومنتلقيه في إدراك الأبعاد العرفانية التي يحملها كلّ طرف. وينتج عن تحقّق تلك الأبعاد التداولية العرفانية تحقّق الإفادة في ذهن المتلقّي.

المصادر والمراجع:

- الجاحظ، رسالة في صناعات القواد، رسائل الجاحظ، الجزء الأول، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة سنة 1974.
- حمودي السعيد، "الانسجام والاتساق النصي، المفهوم والأشكال"، مجلة الأثر: عدد خاص بأشغال الملتقى الوطني الاّول حول اللسانيات والرواية 22-23 فيفري، 2012.
- سهيل إدريس، المنهل، دار الآداب، 2009.
- عبد الجليل عبدة شلبي، الخطابة وإعداد الخطيب، دار الشروق، ط3، 1987.
- ابن عبد ربّه، العقد الفريد، الجزء الاّول، دار الكتاب العربي، بيروت، 1982.
- أبو محمّد القاسم السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تقديم وتحقيق علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، 1980.
- محمود المسعدي، السّد، دار الجنوب للنشر، 1992.
- المرادي (ابن أمّ القاسم الحسن بن القاسم)، الجني الداني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمّد نديم فاضل، الطبعة الاّولى، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان، 1992.

- Dan, Sperber et Deirdre, Wilson, La Pertinence: Communication et cognition, les éditions de minuit, 1989.
- Deirdre Wilson and Dan Sperber. 2004. Relevance Theory. In Horn, L.R. & Ward, G. (eds.) 2004 The Handbook of Pragmatics. Oxford: Blackwell, 607-632.
- Gagnon, Odette, La Cohérence textuelle, Dialangue, volume11, avril, 2000.
- Jacques Moeschler, La Pragmatique après Grice, contrxte et pertinence, l'information grammaticale 66, p28. (en PDF, p10),1995.
- L.Horn and G. Ward (eds.) Handbook of Pragmatics (oxford: Blackwell), 2004.
- M.A.K. Halliday and Ruqaiya Hasan, Cohesion in English, Longman Singapore Publishers, 1994.
- Philippe Breton Philippe, L'argumentation dans la communication - 3e éd - Pans La Découverte, 2003.
- Van Dijk, Relevance Assignment in Discourse Comprehension, in Discourse processes 2,pp113-126 (1979)
- Van Dijk, Relevance in logic and grammar, Directions in Relevant Logic, Raison and argument, Jean Norman and Richard Sylvan (Eds), Volume1, 1989, p25.

-
- <http://people.bu.edu/bfraser/Relevance%20Theory%20Oriented/Sperber%20&%20Wilson%20-%20RT%20Revisited.pdf>.
 - <http://www.discourses.org/OldArticles/Relevance%20assignment%20in%20discourse%20comprehension.pdf>.
<https://sites.google.com/site/moeschlerjacques/publications/articles-1996-1995-1994>.
 - [ouargla.dz/documents/Archive/Archive%20Faculte%20des%20Lettres%20et%20des%20Langues/seminaires%20facultes%20des%20lettres/Linguistique%20et%20le%20roman/HAMOU DI%20ssaid.pdf](http://ouargla.dz/documents/Archive/Archive%20Faculte%20des%20Lettres%20et%20des%20Langues/seminaires%20facultes%20des%20lettres/Linguistique%20et%20le%20roman/HAMOU%20DI%20ssaid.pdf)
 - [ouargla.dz/documents/Archive/Archive%20Faculte%20des%20Lettres%20et%20des%20Langues/seminaires%20facultes%20des%20lettres/Linguistique%20et%20le%20roman/HAMOU DI%20ssaid.pdf](http://ouargla.dz/documents/Archive/Archive%20Faculte%20des%20Lettres%20et%20des%20Langues/seminaires%20facultes%20des%20lettres/Linguistique%20et%20le%20roman/HAMOU%20DI%20ssaid.pdf)
 - Waterlot, Martine, L'évaluation et l'enseignement de la cohérence textuelle.